

تحت رماد الحرب العاصفة !!؟

(أسرار حرب العراق)

بقلم
علاء الدين المدرس

دار الرقيم
للنشر والتوزيع
بغداد - العراق

دار المأمون للنشر والتوزيع
عمّان - الأردن

تحت رماد الحرب العاصفة..!!؟

أسرار حرب العراق

خمسون شاهد عيان ثقة على أحداث الحرب العدوانية على العراق خلال ثلاثة وأربعين يوماً من 3/20 -2003/5/1م.

ذكريات ساخنة ورؤى لشاهد عيان على جريمة العصر والأهوال التي شهدتها بغداد وما حولها أبان الغزو الأمريكي للعراق.

علاء الدين المدرس

دار الرقيم للنشر والتوزيع/ بغداد

1424هـ/ 2003 م

الطبعة الأولى

1424هـ/2003 م

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد 1700 لسنة 2011

بسم اللـه الرحمن الرحيم

مقدمة

اليـوم الاثنـين 14 /4 /2003 هـو اليـوم الـذي آثـرت أن أبـدأ الكتابـة فيـه وأسـجل بعـض الذكريات المؤلمة عن أيام الغزو الأمريكي وحربه المدمرة لبلدي العراق تحت غطاء مزيّـف يخلو من أي شرعية قانونية أو أخلاقية أو حضارية ... غطاء الحريـة والديمقراطيـة وغطاء نزع أسلحة الدمار الشامل من النظام العراقي الذي كان يحكمه صدام منذ أكثر من ثلاثـين عاماً حكماً فردياً في ظل الحزب الواحد الذي أوصل البلاد إلى ما وصلت إليه, بسبب فقدان التعددية والمؤسسية والدستورية, ولكن ذلك لا يمكن أن يكون مبرراً كافياً ولا غطاءً شرعيـاً للغزو والتدمير الذي عشناه خلال الأسابيع الثلاثة الماضية ... والآن ونحن على أعتاب نهاية هذه الحرب التي أتوقعها غداً بعد أن سقطت آخر قلاع النظام البعثي (تكريـت) اليـوم الاثنين 4/14 بأيدي التحالف الأمريكي البريطاني وبعد ستة أيام من سقوط نظام صدام يـوم الأربعـاء المـاضي, ربمـا يكـون الوقـت الآن مناسـباً لتسـجيل بعـض الـذكريات والقناعـات والتحليلات وآراء شهود العيان عما حدث ودار خلال الحرب لكي تكون شاهدة شهادة حية واعية وربما دقيقة عما رأينا نحن هنا في بغداد من أعمال عسكرية عدوانية وقصف جـوي وصـاروخي شـمل المـدنيين والعسـكريين دون تمييـز, وتـدميراً للبنيـة التحتيـة والخـدمات

الأساسية للبلد مما يندى له جبين الإنسانية، كل ذلك لتحقيق الأهداف الأمريكية المعلنة في الاستحواذ على النفط والثروات العراقية ولكي تقر عين إسرائيل وتنام آمنة مطمئنة بعد تخريب أكبر قوة عربية وأعظم ثقافة مناوئة للمخطط الصهيوني المقبل للمنطقة, ولكي يفتح الأمريكان بوابة العولمة العسكرية والاقتصادية لإرهاب دول العالم كافة في الشرق والغرب.

ولعل في الاستراتيجية الإعلامية والحربية التي مارستها الولايات المتحدة الأمريكية في إدارة هذه الحرب غير النظيفة ما هو أخطر وأعظم لإخفاء حقيقة التصدي والصمود العراقي البطل للعدوان بغض النظر عن الموقف من النظام الحاكم, وان ذلك يشمل كافة الفئات والطوائف العراقية, مما يجعل الكتابة عن هذا الموضوع في غاية الأهمية من النواحي الإعلامية والتوثيقية والتاريخية, لكي يعلم الرأي العام في العالم كذب ودجل هؤلاء المعتدين ويكشف منهجهم في السيطرة على مقدرات العالم وإرهابه حتى يكون المال والإعلام والقوة حكراً لهم ولأذنابهم.

لذلك آمل أن يكون لهذه المحاولة الأهمية الإعلامية الواضحة والأثر الطيب على الرأي العام العربي والعالمي، رغم أني سوف أعتمد فيها على الذاكرة وشهود العيان والمعاينة ليس إلا، دون الرجوع إلى المصادر المكتوبة والأجهزة الإعلامية والصحافة التي تجوب البلد بعد الإطاحة برموز الحكم السابق وحزبه الأوحد. فهي تجربة ميدانية

بالدرجة الأولى, وعليه ستكون دقة المعلومات والأحداث التي يتم متابعتها كبيرة من الناحية الميدانية والنقلية والتأكد من صحة وقوعها, مع احتمال ورود خطأ ما في توقيتات تلك الأحداث والمعارك بسبب اعتمادها على الذاكرة القريبة وشهود العيان لمعظم المعارك التي دارت على الساحة العراقية, والله يشهد أنني أكتب هذه المذكرات الآن في ظروف سيئة وإنني أستخدم السراج النفطي (اللالة) لكتابتها بسبب انقطاع التيار الكهربائي, وأتجول في كافة أنحاء بغداد وما حولها من المناطق التي تعرضت للقصف وحدثت فيها معارك كبيرة كالدورة والسيدية والعامرية والمنصور والبلديات والتاجي والشعب والراشدية فضلاً عن الأعظمية ووسط بغداد, وتحدّثت مع عشرات شهود العيان الثقات في هذه المناطق من المدنيين والعسكريين وغيرهم من أبناء الشعب العراقي المجاهد.

إن هذه المشاهد والأحداث التي تم تسجيلها وروايتها هي في الواقع رؤية الشارع العراقي لأحداث الحرب من خلال ما رواه شهود العيان الذين تم انتقاءهم من مختلف الفصائل والمناطق. وهي لذلك تعبر عما كان يجيش في نفوس العراقيين من مشاعر وأحزان وتحاليل وما كان يتناقله الناس من أحداث وقصص في كافة المدن والثغور التي تعرضت للعدوان، كما إنها تعبر عن انعكاس لا شعوري عفوي لشخص عاش أيام الحرب بكل دقائقها وحاول أن يقدم صورة تمثل انطباعاته وقناعاته عن قوة أجنبية غاشمة كانت تحاول أن تحتل بلده تحت أية

ذريعة، وهي تمثل رؤى وقناعات من حوله ممن عاش معه الحدث، وما ترك هذا الاحتلال في النفوس من آثار عميقة ومخلفات قاسية جاءت لتبدل ظلام الظلم والاستبداد بظلمات التبعية والاستعمار. ورغم أنني على يقين من أن هذا الكتاب الذي يعد الأول من نوعه مما نشر عن حرب العراق، ستتبعه كتب عديدة لمؤلفين آخرين تعالج هذا الموضوع من مختلف الزوايا وترفد المكتبة العربية بكل دقيقة من دقائق هذه الحرب الظالمة والعاصفة، فإنني في الوقت نفسه سأكون ممتناً من القارئ الكريم إذا ما زوّدنا بملاحظاته وتعقيباته ومعلوماته عما دار في هذه الحرب من أحداث تخدم الغرض الذي من أجله كتب هذا الكتاب، وفي مقدمة ذلك تدعيم الثقة بقدرات هذا الشعب العظيم والثبات أمام ظلم الاحتلال البغيض، وعودة الوعي ومراجعة الذات العراقية بما جرى من أخطاء وهفوات لتحري الصواب واستلهام العبرة والحكمة، وتخطي العقبات والأخطاء التي كان الجهل والاستبداد من أهم أسبابها، ولذا فإننا ننتظر المزيد من الصور والأحداث التي يمكن إضافتها لهذا الجهد المتواضع لكي تأتي الطبعات التالية أكمل حالاً مما قدره الله سبحانه لنا في الطبعة الأولى، ومن الله التوفيق.

علاء الدين شمس الدين المدرس

12 ربيع الأول 1424هـ

13/ 5/ 2003م

تمهيد

لقد كان الأسبوع الذي سبق الحرب أسبوعا مزدحماً وكثيفاً بالأحداث والأعمال والنشاطات التي عاشها أهل العراق, فربما جاوز عدد الذين قرروا الهرب من جحيم الحرب خلال تلك الفترة أكثر من مليون شخص آثروا الخروج إلى سوريا وبعض الدول المجاورة مع أراجيف الرئيس الأمريكي بوش وتهديده ووعيده ووصول الأساطيل إلى الخليج, ودق طبول الحرب التي تزايدت وتيرتها في ذلك الأسبوع الذي سبق الحرب، رغم أن التلويح بالحرب قد بدأ منذ الصيف الماضي ولم يطفأ غليانه وعطش القادة الأمريكان لتلك الحرب الموتورة وغير المشروعة إلا الغزو والعدوان, ورغم نجاح أمريكا في استصدار القرار رقم 1441 في مجلس الأمن واستئناف التفتيش الذي كان يصب قطعاً في استراتيجية الجاسوسية الأمريكية, غير أن طغيان أمريكا وغطرستها وتأليهها لنفسها ومنهجها لم يكن يثنيه خسارتها في الجولة الثانية من الحرب الدبلوماسية حين لم تستطع أن تحصل على الأغلبية في مجلس الأمن لضرب العراق بعد انتهاء المدة المحددة للتفتيش في منتصف شباط الماضي, وعدم استطاعتها إثبات ما ادعته على لسان بوش وبلير من وجود أسلحة الدمار الشامل في العراق, وكان المنطق الأمريكي الجديد وغير القانوني الذي يدعو إلى أن يثبت المتهم براءته, وأن يقدم العراق

الأدلة على عدم وجود تلك الأسلحة المزعومة. ثم اتخذ الطغيان الأمـريكي قـرار الحرب وإنذار صدام بأن يثبت براءته خلال 48 سـاعة، وهكـذا بـدأت الحـرب بدون أي غطاء قانوني ولا اتفاق دولي أو حتى أوربي، فكانت فرنسا قد تزعمت معارضة الحرب غير المشروعة على العراق تشاركها ألمانيا وروسيا ومعظم الدول الأوربية الأخرى. وواكبت بداية الحرب ظهور قطبين في العالم، القطب الأمريكي البريطاني صاحب راية العولمة والنظام الدولي الجديد ومفهـوم القطـب الواحـد وحكم العالم بالقوة الغاشمة وتهمـيش دور مجلـس الأمـن والمنظمـة الدوليـة، وقطب أوربـا القديمـة (العريقـة) المدافعـة عـن التعدديـة والشرعيـة واحـترام القانون وسـيادة الـدول, وضرورة العـودة إلى المـنظمات الدوليـة الشرعيـة وفي مقدمتها الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي لحل النـزاعات الدولية، والمدافعة عن المنهجية الحضارية التي تجعل من الشرعيـة والسـلام وحقـوق الإنسـان في مقدمة اهتماماتها, ولقد كانت فرنسـا وألمانيـا تسـتذكر صـورة هتلـر وطغيانـه وترى فيه صورة أمريكا الحالية بقيـادة بـوش وحالـة الانفـراد بـالقرار الـدولي، فضـلاً عـن خشـيتها مـن السـيطرة الأمريكيـة عـلى الخـزين النفطـي العـالمي وتحكمها الفعلي في الاقتصاد العالمي. ورغم الموقف الأوربي الصلب ضد الحرب، قررت أمريكا أن تدخلها، يغريها في ذلك قوتهـا الغاشـمة وسـيلان لعابهـا عـلى مـا في العـراق مـن ثـروة هائلـة, وتحـالف بريطانيـا وأسـبانيا واسـتراليا معهـا,

وعدم مرونة الدبلوماسية العراقية وشللها بسبب الحكم الفردي الدكتاتوري, ورهان قوات التحالف على الوضع الطائفي والعرقي في العراق واستثمار ذلك الوضع في خلخلة الصف وحسم الحرب بسرعة لصالحهم, فضلا عن أثر الحصار الذي نخر البلاد خلال السنين العجاف التي تلت حرب بوش الأب، ضاربة بعرض الحائط انتهاكها الصارخ للقانون الدولي واحتقارها لدور المنظمة الدولية ومجلس الأمن, واستهانتها بمشاعر العرب والمسلمين، واتهامهم -في الإعلام الأمريكي المتصهين- بأنهم سبب الإرهاب الدولي في العالم.. وهكذا بدأ التحالف الأمريكي البريطاني الحرب الغاشمة العدوانية، وبدأ الغزو البربري على العراق بعدما مهد الإعلام لتلك الكارثة الإنسانية بكل الوسائل المتاحة واستخدام الحرب النفسية الإعلامية التي غطت العالم بأسره, وقد رفع الإعلام الأمريكي شعار (الصدمة والترويع) لهذه الحرب الكبرى لفتح باب السيطرة على العالم وفرض العولمة والنظام الدولي الجديد على العالم بالقوة بدءً بأفغانستان فالعراق ثم بقية دول آسيا وأفريقيا ثم أوربا كحصيلة نهائية لتداعيات هذه الستراتيجية الاستحواذية بزعامة أمريكا.

ومن المفيد أن أذكر أنه قد وقع في يدي كاسيت يحتوي على خطبة الشيخ يوسف القرضاوي ليوم الجمعة التي سبقت الحرب في 14 /3 /2003, وكانت الخطبة مكرّسة لموضوع الحرب على العراق وكشف المخطط العدواني الأمريكي الصهيوني وخلفيات ذلك

المخطط والتداعيات الخطرة المتوقعة فيما إذا نشبت الحرب وسقط العراق في أيدي قوات التحالف. وقد قمت بنشر هذه الخطبة بين الناس خلال أيام الحرب الأولى لتحذيرهم من مخاطر الغزو الأمريكي الصهيوني, كما وقع في يدي مقال من الانترنيت موقع الجزيرة نت بعنوان (بوش.. طغيان الحماس الديني على البصيرة السياسية) بقلم الكاتب الموريتاني (محمد مختار الشنقيطي) مع مقال آخر لكاتب أمريكي يدعى ليندن بعنوان (العمى الأخلاقي الأمريكي) والمقالان يتحدثان عن النفوذ الصهيوني في أمريكا وخطة الصهاينة في تهويد وصهينة المسيحيين البروتستانت الأمريكان, واحتلال الشرق العربي لتدعيم الأمن الإسرائيلي, تمهيداً لظهور المسيح المنتظر بزعم هؤلاء الصهاينة والمتصهينين البروتستانت, ومن بين هؤلاء المؤمنين بهذه العقائد والأفكار الرئيس الأمريكي بوش وكثير من أقطاب الحكم والسياسة في أمريكا، وجاءت أحداث 11 أيلول وتداعياتها واتهام المسلمين بالإرهاب لتعزز هذا المنطق والمنهج الأمريكي سواء إيماناً به أو تسخيراً له لصالح الأطماع الأمريكية في العالم العربي والإسلامي. وقد حاولت نشر هذين المقالين أثناء الحرب لتدعيم الجبهة الداخلية وللتعبئة وتجسيماً للخطر الماحق بكل صوره وتثبيتاً للمؤمنين, رغم قناعتي وقناعة الكثير من الإسلاميين أن الراية المرفوعة أثناء الحرب لم تكن إسلامية, وأن صدام وحزبه لم يعطوا أي فرصة للإسلاميين للدفاع عن البلد ولم يثقوا بهم ولم

يسلّموا السلاح لهم حتى آخر لحظة لسقوط النظام. ولكن واجب الدين والوطن يدعو إلى التصدي والوقوف بوجه الغزو والعدوان بكافة السبل ومنها إيصال الكلمة الصادقة والوعي والتثبيت، وقد كان شعارنا في ذلك قوله تعالى: ﴿ **إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا, سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان**﴾ [1] فإذا كان النظام الحاكم لم يسمح بالجهاد وحمل السلاح، فعلى الأقل يمكن أن نقوم بجهاد الكلمة وتثبيت المقاتلين للجهاد والصمود بوجه الغزو والاحتلال.

بدء الحرب على العراق

في فجر يوم الخميس وفي الساعة الخامسة بعد انتهاء فترة الإنذار القصيرة للعراق، بدأت الحرب الظالمة، وسمعنا صوت صفارة الإنذار بعد دوي القصف الجوي والصاروخي على بغداد. واستمر القصف طوال اليوم والأيام التي تلت، وبدأ البث التلفزيوني العراقي الخاص بتغطية الحرب في الساعة الثامنة صباحاً، وسمعنا خطاب الرئيس صدام الحماسي والقصير في الساعة الثامنة والنصف, وبدأ الإعلام العراقي يشد من أزر الشعب بالأغاني والأناشيد الوطنية الحماسية, ثم صدر البيان الأول معلناً بدء الهجوم البري الأمريكي

[1] سورة الأنفال/ 12.

على أم قصر، تلك المدينة الصغيرة الباسلة التي تقع على الحدود العراقية الكويتية، ثم بدأت القوات الأمريكية والبريطانية تتدفق على جنوب العراق مستهدفة الفاو والبصرة من الحدود الكويتية..

وبعد يومين من القتال الشرس في أم قصر والفاو والذي أبدى خلاله الجيش العراقي مقاومة باسلة وتحدياً بطولياً لهذا الغزو الهمجي المتذرع بحجج غير صحيحة ولا صادقة. لقد وجد الأمريكان والإنكليز أن بوابات العراق الصغيرة في أم قصر والفاو عصية على جيوشهم المدججة بالسلاح الحديث والتكنولوجيا المتطورة، وقد كانوا يظنون أن جنوب العراق سيفتح ذراعه وأبوابه لهم بالورود والزهور، فلم يجدوا غير الرصاص والصدور المؤمنة الصابرة التي واجهت قوات الاحتلال وصواريخهم، لذلك قرروا أن يتركوا الفاو وأم قصر ويذهبوا بمرتزقتهم إلى البصرة العريقة مدينة التاريخ والحضارة والنفط، فلم يجدوا فيها غير الصورة التي رأوها في القرى الصغيرة. فتصدى أبناء البصرة وعشائرها وجندها وفدائيوها وكبدوا العدو أفدح الخسائر. وفي مساء السبت تحدث البيان العسكري العراقي عن تقدم الجيش البريطاني نحو البصرة الفيحاء، وفي صباح الأحد 23 /3 /2003 حدثت معارك طاحنة بين قوات التحالف والعراقيين، أبدى الشعب العراقي وجيشه بسالة نادرة وكبدوا المعتدين خسائر جسيمة في الدروع والطائرات والجنود من القوات الخاصة (المرتزقة) والقوات الإنكليزية، أما في بغداد وبقية

المدن في عمق أرض العراق فان القصف الجوي والصاروخي لم يتوقف ولم يفتر عنها, وكانت بغداد الحبيبة تئن تحت وطأة أكثر من1600 ضربة صاروخية وجوية يومياً, كان جزءٌ غير يسير منها على المدنيين والمؤسسات الخدمية والدوائر والمستشفيات والمنازل والشوارع والمتاجر، وفي معظم أحياء وضواحي العاصمة في الدورة والعامرية وسومر والأعظمية والشعب وغيرها, مسببة استشهاد المئات من المواطنين من النساء والأطفال والشيوخ، فضلاً عن قصف مواقع الحرس الجمهوري وقيادات الجيش والفدائيين حول بغداد.

معركة أم قصر

لقد وقعت معركة أم قصر في اليوم الأول للحرب, حيث بدأت قوات التحالف هجومها البري على العراق من حدود الكويت المقابلة لمدينة أم قصر, ورغم صغر هذه القرية والميناء فإن العراقيين لم يتركوها لقمة سائغة للغزاة بل إن الجيش المتموضع فيها قاتل وصمد صمود الأبطال وكبد العدو خسائر كبيرة أضطر إلى التعتيم عليها بعدما شعروا أنها قد تجاوزت ما توقعوه بسبب تلك البطولة النادرة التي لمسوها في إصرار وثبات العراقيين على المقاومة ورد العدوان. وإن أم قصر استطاعت الصمود أمام الغزو سبعة عشر يوماً كاملاً, وإن الفرقة 11 والفرقة 51 اللتين كانتا من أضعف الفرق في الجيش

العراقي استطاعت أن تقهر قوات التحالف وتوقف هجومهم، وقد كان الأمر أكثر صدمة لهم في البصرة والناصرية والنجف وفي وقفتهم الشجاعة في الأيام التالية.

أيام العاصفة الرملية

لقد كانت من استراتيجيات الدفاع العراقي في بغداد ومراكز المحافظات إشعال النفط الأسود في أسوار بغداد وحول المدن الكبيرة للتأثير على أجهزة الرادار والمراقبة والطيران لقوات التحالف، وأني لا أستطيع تقدير مدى فائدة هذه الخطة من الناحية العسكرية، لأني لا أمتلك الخبرة والقدرة على تقييم هذا الإجراء، ولكن يبدو لنا إنه أربك العدو في إصابته لأهدافه وفي مناوراته وحساباته على الأرض خلال الأسبوع الأول والثاني للحرب، لاسيما وأنه اقتنع أن يبقي قواته في الصحراء شأن الجبناء, ولا يدخل المدن العراقية بعدما اصطدم بالروح البطولية للعراقيين في الدفاع عن مدنهم، وخصوصاً بعد أن شهدت الناصرية هي الأخرى مقاومة باسلة ومعارك ضارية لطرد الغزاة كبدت الأعداء خسائر كبيرة، وكان الإعلام الأمريكي حريصاً على عدم إعلانها أو الاكتفاء بإعلان أقل من عشرها خشية الرأي العام العالمي والأمريكي والبريطاني بشكل خاص بسبب اتساع صوت المعارضة للحرب والعدوان داخل أمريكا, فضلاً عن أوربا والعالم. ومما زاد الطين بلّة، إن التأييد الإلهي كان واضحاً في

تثبيت المقـاتلين ورفـع معنويـات الجـيش والشـعب العراقـي، حيـث كـان جنـد اللـه بالمرصاد لتدمير معدات العدو وإنزال الوهن والرعب في صفوفهم بعد العاصفة الرملية والأعاصير الشـديدة التـي دامـت ثلاثـة أيـام بلياليهـا، لتتـيح للعـراقيين مناقلـة قـواتهم وتعرضهم لقوات الغزو المنتشرة غرب الفرات في الصحراء الممتدة على الحدود العراقيـة السعودية. لقد كـان لهـذا التأييـد الإلهـي الأثـر الكبـير عـلى صـمود العـراقيين ميـدانياً ومعنوياً, في حين كان ذلـك فـأل شـؤم وروح انتقـام طـاردت قـوات التحـالف وآليـاتهم وأجهزتهم, مما جعل ميزان المعارك لصالح الصمود العراقي رغم عدم التكافؤ في القـوى والإمكانيات بين الطرفين.

معارك البصرة والناصرية والنجف والرمادي

وهكذا كانت أيام الأحد والاثنين والثلاثاء وبالاً على المعتدين حتى أفزعت بوش وبلير ورامسفيلد وغيرهم من المتآمرين على هذا البلد العريق, وقد كانت معارك الأنبار في الرطبة والقائم ثم النجف وكربلاء وفشل المحتلين في تحقيق أهدافهم الشريرة في الدخول إلى المدن عاملاً مضافاً في الارتباك الحاد في صفوف التحالف المعادي لاسيما قادتهم، مما أضطر بوش وبلير أن يلتقوا ثلاث مرات خلال الأيام العشرة الأولى للحرب, ثم تلاحقت الهزائم والخسائر الكبيرة في قواتهم حتى يوم السبت 29 /3، لاسيما في معركتي الناصرية والنجف البطوليتين, حيث أنه في معارك الناصرية وحدها تم إسقاط عشرين طائرة سمتية نوع أباشي وطائرة سمتية نوع كوبرا، وتدمير مئات الدبابات والناقلات وتكبيد العدو خسائر كبيرة في الأرواح، واستمر الموقف العسكري الميداني لصالح العراق، وكان الإعلام العراقي ذا الإمكانيات الفقيرة المحدودة أصدق وأدق من الإعلام الأمريكي الذي يعتمد على الخيال والتوقع والزيف والكذب وإخفاء الحقيقة عن العالم بشكل أساسي انتظاراً للحظة تنفيذ خطة (الصدمة والترويع) التي كان يحلم بالوصول إليها في لحظة الانهيار العراقي السريع المتوقع والحرب الخاطفة التي خطط لها بوش وأعوانه لتكون خلال مدة لا تزيد على ثلاثة أيام، وحين لم يحصل ما توقعهُ

الأمريكان، بدأ التخبط والتناقض في التصريحات، ومع نهاية الأسبوع الثاني بدأ الحديث عن تغيير الخطط المعدة سلفاً، وظهر على السطح ما لا يتمنى هؤلاء الحلفاء، نتيجة الهزائم الحقيقية التي حصدها الغزاة في البصرة والناصرية والسماوة والنجف وكربلاء والأنبار وقضاء البعاج في الموصل، وفشل الإنزالات العديدة في الرطبة واليوسفية وكربلاء وتقهقر التحالف المعادي وتكبدها خسائر غير متوقعة بلغت آلاف القتلى والأسرى ومئات الدبابات والدروع والناقلات، مع تزايد ملحوظ في العمل الفدائي الاستشهادي في النجف والناصرية والأنبار، لاسيما بعد عملية الشهيد علي النعمان في النجف، ولم يستطع الإعلام العراقي المتواضع أن يوصل كل تلك الحقائق إلى العالم بسبب قدرته الضعيفة وسوء الإدارة الإعلامية ومحاصرة القوات الغازية للقنوات الإعلامية المستقلة والمحايدة، تمهيداً لغدر العراق وإجهاض تصديه البطولي الأسطوري، رغم استبداد النظام الذي لم يسمح لكثير من المخلصين بالمشاركة الفاعلة في القتال، ورغم تردد البعض من الناس بحجة أن الراية البعثية لا تمثلهم، إلا أن الجيش والفدائيين العراقيين والعرب وأهل المدن والعشائر في جنوب العراق وغربه وشماله، كل تلك الفصائل قاتلت وجاهدت خلال الأسبوعين الأولين كصف واحد وقوة واحدة مؤثرة وسخية، وقد حدثني الكثير من شهود العيان من الجيش والشعب أن مئات الأسرى الأمريكان في الناصرية والبصرة والأنبار قد تم

عرضهم على الناس وحجزهم في أماكن مخصصة تمهيداً لاستلام الأوامر بشأنهم، وقد ذكر أحد الثقات أنه في إنزال غرب الأنبار في الأسبوع الأول بين الرطبة والقائم تم قتل 50 أمريكي وأسر 75 جندي آخر تم حجزهم عند قبيلة البو نمر ولم يسلموهم إلى الدولة بسبب إشكال قديم بينهم وبين السلطة، مما دعا بصدام إلى استرضائهم وإكرامهم على عملهم الباسل، وكذا الأمر في الناصرية حيث تم أسر عدد كبير من الجنود الأمريكان بعد معركة الناصرية الباسلة، وقد حدثني شاهد عيان آخر عن مئات القتلى الأمريكان التي كانت رؤوسهم تلقى أمام صدام في بغداد, ممن كانوا حصيلة العمليات الفدائية في مختلف مواقع القتال, وبعد حادثة عرض الفيلم العراقي للأسرى الأمريكان والضجة الكبيرة التي افتعلوها حول انتهاك العراق لاتفاقيات جنيف للأسرى, أصبح عرض الأسرى في التلفزيون والتصريح بعددهم من الأمور الحساسة في الإعلام العراقي, ويقال أن صدام أمر بقتل من يقع في الأسر من الأعداء للتخلص منهم ومن الإشكال الإعلامي والاتهامات الأمريكية.

أما العمليات الإستشهادية فقد كانت كثيرة ولكن الإعلام العراقي كان أضعف من أن يغطيها كلها, عدا تلك التي أعترف بها العدو والتي كانت قرب المدن الكبيرة, وأشهرها العملية الإستشهادية الكبرى التي قام بها الشهيد البطل علي جعفر موسى النعمان في مدينة النجف، والتي قتل فيها 11 جندياً أمريكياً ودمّر دبابتين وناقلتي جنود في

أول عملية فدائية بطولية يوم السبت 29/ 3 حيث قاد سيارة مفخخة وفجّرها في وسط آليات العدو وجنوده, وقد أعترف الأمريكان بهذه العملية وذكرتها وسائل الإعلام العالمي, وكذلك عملية إسقاط الفلاح العراقي علي لفتة للطائرة السمتية في كربلاء باستخدام سلاحه الخفيف (بندقية برنو) يوم الاثنين 3/31 والتي حاول الإعلام الأمريكي التشكيك بها بعد احتلال بغداد في محاولة لتسويق الرواية الأمريكية للحرب مستبعدين أي دور بطولي للعراق, والعملية الفدائية البطولية النسوية التي قامت بها الشهيدتان نوشة الشمري ووداد الدليمي في مدينة الرمادي يوم الجمعة 4/4 في مطلع الأسبوع الثالث للحرب والتي أدت إلى مقتل وجرح عدد من أفراد قوات التحالف.

وقد روى لي أحد شهود العيان الثقات من أهالي البصرة بعض الأحداث التي حدثت في البصرة أثناء الحرب وبعد سقوط النظام في بغداد فقال: أنه في اليوم الثاني من الهجوم دنس البريطانيون أرض الزبير بن العوام والحسن البصري (مدينة الزبير) وواجهوا ما لم يتوقعوه من الناس الذين عشقوا الحق، فواجهوا هذا التدنيس بكل صلابة بما امتلكوا من أسلحة متواضعة وأحرقوا بعض آليات العدو واختطفوا بعض الجنود من المعتدين وذبحوا الآخرين مما أدخل الرعب في قلوب المستعمرين.

ومن الروايات التي تعد من صفحات الصمود البطولي ما فعله آل الراشد في الفاو إذ وقفوا يدافعون عن المدينة دفاع أصحاب الحق عن حقهم وقد شهد لهم الناس بذلك.

لقد دارت معركة رائدة بين قوات المشاة البحرية في (أم قصر) وبين القوات البريطانية ابتدأها البريطانيون بالقصف الشديد بالطائرات والمدفعية فلم تتحرك القوات العراقية أي حركة وظن البريطانيون أنه لم يبق من قوات المشاة والبحرية العراقية أحد فتقدموا عليهم، فخرجوا لهم من المواضع ودارت معركة ضارية بين الطرفين حقق فيها العراقيون نصراً على الأعداء وكبدوهم خسائر فادحة وتراجع الباقون إلى الخلف.

أما في مدينة البصرة فقد ربض البريطانيون على مشارف المدينة، وبالتحديد عند جسر الزبير ولم يستطيعوا التقدم إلى المدينة لمدة أسبوعين ووقف بوجههم الفدائيون العراقيون والعرب, وقد تفاهم بعض أعضاء الحزب الحاكم الكبار من بعض العملاء مع البريطانيين حول تسليم البصرة دون قتال, ولم يتحقق ذلك ألا بعد جهد جهيد, بفضل وجود الأبطال الغيارى من الوطنيين والفدائيين, ومن صور البطولة لهؤلاء الفدائيين العرب أنه كان أحدهم قد شدّ رجله حتى لا يستطيع التراجع, وكان يضرب العدو وقد أحرق دبابة وناقلة ثم أستشهد, وقد كان ذلك في (معركة حمدان) هكذا سميت عند الناس لأنها في منطقة حمدان, ويروي لنا الثقات إن امرأة خائنة

أخذت ترمي على الفدائيين بسبب ولائها للأجنبي وادعائها بغضها لصدام ثم قُتلت بنار الفدائيين. وقد أصاب الناس في هذه المنطقة الهلع بسبب القصف العشوائي عليهم.

وعند دخول القوات المحتلة للمدينة كان بعض الرعاع الذين لا يفهمون معنى الحق وأهله والباطل وأهله, أخذوا يصفقون ويضحكون مع جنود الاحتلال، ولكن أغلبية الناس ثبتوا ولم يخشوا الباطل فمنهم من لزم بيته وأخذ يبكي ومنهم من لم يصدق ما هو فيه, ويذكر إن جماعة من جامع الفاروق في الجنينة أخذوا يبكون في المسجد فاستحيا الناس من استقبالهم للمعتدين وتراجعوا ودخلوا بيوتهم.

بعد الاحتلال جاءت المأساة وحلت الفوضى ونزل الانفلات الأمني بساحة الناس وغياب القانون بغياب الأخلاق والدين, وبدأ السلب والنهب لدوائر الدولة, أقول لدوائر الدولة فلم تذكر حالة سرقة للأفراد إلا ما ندر, والسرقات كانت مقتصرة على الدوائر والمؤسسات والمخازن, ومن بين هذا التسيب والانفلات كانت هناك أخلاق وقيم بصيغة فريدة، فقد وقف أهل السيمر قرب المحكمة القديمة في البصرة على الشارع وأخذوا يقذفون السرّاق و (الحرامية) بالحجارة فكسروا سياراتهم وأمتعتهم وتركوا الأمتعة وهربوا.

ثم هبّ العلماء إلى حث الناس إلى تذكر الله وردّ المظالم وإرجاع الممتلكات إلى أماكنها فأرجعوها إلى المساجد والحسينيات. ثم بدأ دور المخلصين الغيارى في إعادة بناء البلد والمؤسسات.

فشل خطة الحرب الخاطفة والصدمة والترويع الأولى

مع مطلع شهر نيسان تـم إجـراء تغيـيرات في الخطـة الأمريكيـة ميـدانياً وإعلامياً، وذلك إن الخطة الإعلامية التي كانت تعتمد أساساً عـلى إخفـاء الحقـائق وتقليـل عدد الخسائر إلى أدنى حـد ممكـن أصبحت غـير قابلـة للتنفيـذ بسـبب الخسـائر الجسيمة في معارك المدن والعمليات الفدائية وبسبب وجود الإعلاميـين المحايـدين ونقلهم جزءً غير قليل من الحقائق التي لا تروق للأمريكان ولا تنسجم مع خطتهم الخبيثة، فقـررت قيـادة التحـالف تهمـيش دور وزيـر الـدفاع الأمـريكي رامسـفيلد وإسناد قيادة الجيش لرئيس الأركان, وتشديد عملية تقييد الإعـلام الأوربي والعـربي المحايد والتي وصلت إلى درجة ضرب مركز التجمع الإعلامي في بغـداد وقتـل عـدد من الصحفيين, منهم مراسل في قناة الجزيرة هو طارق أيوب, والتآمر عـلى الإعـلام العراقي وطعنه مـن الخلـف وإظهـاره بمظهـر الإعـلام الكـاذب المخـادع بأسـاليب تكتيكية هوليودية آخرها قصة معركة المطار التي خُدع فيها وزير الإعـلام العراقـي محمـد سـعيد الصـحاف أيمـا خديعـة سـنأتي عليهـا لاحقـاً، وضرب وسـائل الإعـلام العراقي في القلب بقصفها بشكل هسـتيري ومتكـرر، والاتصـال بالقـادة الميـدانيين والأمراء العراقيين في الجيش والحرس الجمهوري وتحـذيرهم مـن خطـورة مواجهـة القـوات الغازيـة وتهديـدهم بمحـاكمتهم كمجرمـي حـرب، وإدخـال عنـاصر مـن

قادة المعارضة إلى المدن العراقية الجنوبية التي استعصى عليهم دخولها لتفتيت الجبهة الداخلية والتشكيك في قدرة النظام والجيش على الصمود, وتجييش الجواسيس والعملاء ونشرهم في المرافق والأماكن المهمة في البلد وتجهيزهم بأجهزة ومعدات متخصصة لتحديد الأهداف الحيوية لغرض قصفها وذلك للإسراع في الإجهاز على أركان النظام, ويتوقع البعض أن عدد الجواسيس الذين أدخلتهم قوات التحالف وصل إلى 5000 جاسوس وعميل, واستنفار القوة الاستخباراتية للتحضير للضربة القاصمة.. ثم توجيه الضربة القاضية للنظام العراقي في المطار والمنصور والقصر الجمهوري في الأسبوع الثالث خلال أيام الأحد والاثنين والثلاثاء منه . هكذا كانت الخطة بعد أن يأس العدو من الوقوف أمام بسالة التصدي العراقي على الأرض، لاسيما وأن الخطة الأمريكية كانت - كعادة أي غازي جبان-تقتضي عدم الدخول في المدن والاصطدام مع الجيش والحرس والفدائيين, فكان هؤلاء الغزاة يجوبون الصحراء خوفاً من الموت على أيدي العراقيين, متدرعين بحصونهم ومدرعاتهم ومعتمدين على التفوق الجوي الساحق وقوتهم الصاروخية, وتلك الصفة يؤكدها القرآن الكريم حين يخبر المؤمنين عن قتال هؤلاء المعتدين وأمثالهم فيقول: **﴿ لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرىً محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى**

ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ (سورة الحشر/14) وقد زاد من ورطتهم في حصنهم الصحراوي تلك العاصفة الرملية التي أعمت أبصارهم وأجهزتهم فضلاً عن قلوبهم. كما أن من الحقائق الأخرى التي تبين الزيف الإعلامي الأمريكي هي استخدام أكثر من 150 ألف جندي من القوات الخاصة (المرتزقة) وهذا العدد يزيد على نصف الجيش الأمريكي الذي جيء به لغزو العراق، وهؤلاء حسب ما صرح الأمريكان أنفسهم إنهم مرتزقة بحق، فهم ممن لم يحصل على الجنسية الأمريكية أو من أوباشهم وسرّاقهم ومجرميهم، ممن يرغبون الالتحاق في هذه القوات الخاصة بأجور مجزية وعالية جداً مقابل شرطين هي أن لا يُعلن عن مقتلهم من قبل الحكومة الأمريكية، وأن لا يحق لأهليهم المطالبة بمعرفة مصيرهم بعد مقتلهم، كما ويمتاز الجيش الأمريكي المنتشر في الخليج بميزة أخرى، هي تخصيص فرق عديدة وكبيرة للإخلاء والإنقاذ، فلا تنتهي معركة أو هزيمة لجنودهم ودروعهم حتى يسارع هؤلاء بواسطة فرق الإنقاذ لشفط وسحب كل ما على الأرض من القتلى والجرحى ومعدات ودروع وطائرات دون الحاجة إلى الإعلان عن ذلك. بتلك الخطة الخفية استطاعوا أن يصوروا للعالم أنهم لم يخسروا أكثر من مائة وخمسين قتيلاً مع عدد من الجرحى والأسرى، مما يصور عقلية الكاوبوي والخيال الذي يحكمهم ويمنيهم

بالسيطرة على العالم, بحجة إنهم لا يقهرون وإن ما يقتل منهم هو شيء لا يذكر مقارنة مع قتلى خصومهم والأهداف الكبيرة التي يريدون تحقيقها, مما يخدع الرأي العام الأمريكي بأسطورة القوة الأمريكية ومنهجهم الذي لا يعتمد إلا على الزيف والخدع الإعلامية الكبرى، مما سيؤدي قطعاً إلى مأساة مروعة في أمريكا والعالم خلال الحقبة القادمة, إذا لم يتم ردع هذا الأسلوب المخادع, والذي لا يحتفظ بأي قيمة شريفة أو مبدأ حضاري إنساني سوى تقديس القوة التي تمثل الحق في العقل الأمريكي، وخداع البشرية من خلال الهيمنة على الإعلام العالمي ومقدرات العالم.

استعدادات صدام لإطالة أمد الحرب

لقد كانت هناك مؤشرات عديدة تشير إلى تماسك النظام العراقي وقوته خلال الأسبوعين الأولين للحرب, بل قد يتعدى ذلك حتى صباح يوم الاثنين 2003/4/7 حيث شاهدتُ بنفسي أوراق موقعة من البنك المركزي العراقي للمكافآت التي قرر صدام صرفها لمن يقتل أحد الغزاة أو يسقط طائرة أو صاروخ أو يدمر دبابة أو مدرعة أو ناقلة جنود، وكان تاريخ التوقيع للبعض منها يوم الاثنين 4/7, هذا فضلاً عن انسيابية الأعمال الخدمية لاسيما الكهرباء والماء، واستمرار عمل محطات تعبئة البنزين بشكل اعتيادي دون ازدحام أو إرباك، حيث قمت أنا لآخر مرة بملء سيارتي بالبنزين يوم الاثنين

4/7 أيضاً عصراً من محطة المنصور قرب السوق المركزي, وكذلك استمرار المداخن المصطنعة الناتجة من حرق النفط الأسود حول بغداد لما بعد الاثنين، واستمرار إعداد البيانات العسكرية واللقاءات الصحفية لوزير الإعلام ووزير التجارة حتى صباح الثلاثاء، وقد شهد الأسبوع الثاني للحرب إرسال رسائل وبيانات ومكافآت عديدة من قبل صدام وكانت تقرأ من قبل وزير الإعلام, منها رسالة مفتوحة من صدام إلى الزعيم الكردي جلال الطلباني يحذره فيها من مغبّة التمادي في متابعة قوات الاحتلال والمشاركة معهم في غزو الموصل وكركوك ما دام صدام في الحكم ويمثل السلطة المركزية للعراق, ورسالة جوابية ذات طابع معنوي وتطميني لنساء العراق موجهة إلى بنت أخيه ثريا برزان, وكانت الرسالة تكنيها بأم أحلام للتأكيد على الدور الأبوي لصدام لنساء وبنات العراق, وكانت تؤكد على عدم السماح لقوات التحالف بدخول بغداد واختراق أسوارها إلا على أجسادنا, كانت تلك الرسالتين قد أذيعت يومي الاثنين والثلاثاء 3/31 و 4/1. غير أن الموقف قد أنقلب رأساً على عقب بعد أسبوع واحد من إذاعة هذه الرسائل, ودخل المحتلون بغداد بشكل مفاجئ وغير متوقع. أما صدام فقد كان ظهوره في بغداد يوم الأحد 4/6 عصراً في مناطق عديدة كالمنصور والأعظمية وشارع حيفا، حيث نقل التلفزيون العراقي تلك الجولة -وكان قد ألقى الخطاب الثاني له يوم الاثنين 3/24 في

الأسبوع الأول للحرب- ولم يظهر صدام حسين بعـدها في بغـداد إلا في الأيـام الأخـيرة من حكمه يومي الأربعاء والخميس ولكن ليس كـرئيس دولـة وإنمـا كأحـد الأشـقياء وزعيم عصابة ومعه مجموعة من السيارات وعدد من الفدائيين, ربما لا يزيد عددهـم عـلى 100 شخصـاً، حيـث ظهـر في جـامع الإمـام أبي حنيفـة ظهـراًَ بحـدود السـاعة الواحدة يوم الأربعاء 9 /4، وقد رآه عدد من أهالي الأعظمية مـنهم بعـض أصـدقائي، وأخص منهم الأخ أبو دعاء الذي قام بمصافحته ومعانقته، وهو يقـول لـه أنـتم أهـل الأعظمية أبطال، كما التقيت بأكثر من عشرة أشخاص آخرين ثقة ممن رأوه وتكلموا معـه في ذلـك اليـوم، والجـدير بالـذكر أن صـدام لم يقـدم أي شيء متميـّز وحقيقـي للأعظمية سوى بنائه القصر الرئاسي الحصين والذي جعلـه الأمريكـان أحـد مقـراتهم بعد احتلال بغداد, ولم يزرها طوال حكمه، لكنه آثر أن تكون آخر أيامه في الأعظمية، وقد شوهد فجر الخميس في أحد مساجد الأعظمية الصغيرة, يقال إنـه مسـجد (بشر الحـافي) قـرب جـامع أبي حنيفـة، ثـم اختفـى أثـره. وكـان وجـوده في الأعظميـة مـع الفدائيين سبباً مهماً لقصـف الأعظميـة وتـدمير مأذنـة جـامع الإمـام أبي حنيفـة واستشهاد عشرات المدنيين والشباب والاستشهاديين وتخريـب عـدد كبـير مـن المبـاني والمتاجر والسيارات.. وقد سمعنا دون أن نتمكن من ترجيح الأخبار التي تحدثت عن اشـتراك صـدام في القتـال مـع الفـدائيين الـذين رافقـوه في عـدة معـارك في المنصـور

والعطيفية والأعظمية يومي الخميس والجمعة, فضلاً عن معارك سابقة في اليرموك وساحة النسور والقصر الجمهوري, ولقد سمعتُ بنفسي أصوات الرصاص لمعركة العطيفية دون أن أستطيع تأكيد وجود صدام مع المقاتلين.

أستطيع أن أقرر- كما أكد بعض شهود عيان في المنصور- أن مفتاح بغداد واللحظة التي سقط فيها صدام وانهار النظام وبدأت الفوضى هي اللحظة أو الساعة التي تلت قصف المكان الذي خصص لاجتماع صدام مع القيادة في المنصور خلف مطعم الساعة في شارع 14 رمضان يوم الثلاثاء 4/8 ظهراً, وقد رأيت بنفسي يوم الأحد 13/ 4 ذلك المكان بعد قصفه وتدميره, فبعد ذلك الحدث الحاسم والفاصل في تاريخ العراق خرج صدام من بين أنقاض البيت الذي تهدم كلياً نتيجة القصف الشديد والخاطف الذي تم بإشارة من أحد الجواسيس والمتخاذلين من قادة الجيش, خرج صدام ينفض التراب عن بزّته وهو لا يدري إنه بذلك كان ينفض يده من الحكم والسيطرة على مقاليد الأمور، حيث تحول فجأة إلى فرد عادي لا يختلف عن أي عراقي فاقد الحول والقوة, وتلك هي قدرة اللــه وقدره النافذ أن يحول السلطان إلى صعلوك والصعلوك إلى سلطان بفعل كن فيكون، ويتحول الملك إلى عبد ذليل في رمشة عين..يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير، فهل سيعتبر الناس والحكام

والأمراء من تلك الأحداث والتغيرات الخطيرة التي قدرها الله على العراق وعلى حاكم العراق الذي لم يكن يتصور تلك النهاية الحزينة.

وقبل الحديث عن معركة بغداد نستطيع أن نقول، أن صدام قد رحل عن عالمنا كما بدأ حياته.. رجلاً شقياً شجاعاً مستبداً عنيداً شديد العناد.. تاركاً ملكه العظيم تعبث به أيادي السرّاق والمجرمين والوصوليين، وبناءه العظيم أن ينهار تحت مرأى ومسمع من أعدائه والطامعين في عراقه الذي أبى أن يتقاسمه مع أحد، إلا أن يتركه تراباً بأيدي خصومه، بعدما غدروا به عند دخوله جنة الكويت بوحي وتشجيع منهم, يوم كانوا حفظة ملكه الأخفياء والذين جاؤوا به إلى السلطة وأغروه بحرب جارته الكبرى إيران.. ومن الطريف أن أذكر أنني اليوم الثلاثاء 4/15 طفت معظم أحياء ومناطق بغداد في الكرخ والرصافة، فلم أجد صورة أو تمثالاً لصدام إلا وقد دمّر أو شوّه، في حين أن تمثال سلفه أحمد حسن البكر في المنصور لا يزال محتفظاً بقوامه وزهوه ماداً يده إلى أهل بغداد في محنتهم العصيبة.

لقد كان صدام يعتقد أن نظامه سيصمد أمام العدوان الأمريكي لمدة لا تقل عن ستة أشهر، حيث إنه قام بتوزيع الحصة التموينية للشعب لمدة سبعة أشهر ولغاية الشهر العاشر من هذا العام (2003م)، كما أنه أمر بحفر آلاف الآبار في بغداد والمحافظات, وحث الناس على حفر الآبار في بيوتهم، ففي الأعظمية مثلاً حفرت مئات الآبار, وكانت على نوعين كبيرة وصغيرة, على عمق يزيد على 15 متراً

بالنسبة للآبار الصغيرة وأكثر من 25 مترا للآبار الكبيرة، حيث تـم حفـر آبـار كبـيرة في الحديقة المقابلة لجامع الإمام أبي حنيفـة, وكـذلك في حديقـة (حجـي بصرة) في حـي السفينة, وبئر ثالث كبير مقابل جامع الرحمن الرحيم على كـورنيش السـفينة وقـرب مستشفى النعمان، وشمل هذا الإجراء كافة الوزارات والدوائر المهمـة والمستشـفيات والمقرات الحزبية والأمنية ومراكز الشرطة والأحياء الشعبية فضلا عن المنازل, وهكذا في باقي المحافظات والمدن العراقيـة الأخـرى، مـما يـدل يقينـا عـلى أن صـدام دخـل المعركة ويحدوه الأمل بالثبات والمقاومة لأشهر طويلة بـل لسـنين, حيـث صرّح عـلى لسان أحد وزرائه إنه مستعد لحرب طويلة تصـل إلى 13 سـنة, حتـى يتغـير الموقـف السياسي في العالم العربي وأوربا والعالم وينحاز لصالحه، ولقد كانت هذه الآمال مجرد أحلام وخيالات لأن أتباعه وحزبه معظمهم مـن النفعيـين والوصـوليين الـذين أترفـوا بالأموال والمناصب والتسلّط على رقاب النـاس, أمـا الفئـات الوطنيـة التـي كـان مـن الممكن أن تصمد وتقاوم وتحارب فلم يكن يثق بها ولم يجهّزها بالسلاح المناسب، بل حتى السلاح الخفيف لم يسلّم إلى الناس حتى أواخر أيامه لخوفه من انقلابهم عليـه، عـدا العشـائر وسـكان المـدن - الـذين اسـتطاعوا التحايـل عـلى النظـام والحصـول على السلاح المحدود التأثير- والجـيش والحـرس والفـدائيين الـذين تفـانوا في الـدفاع عـن الـوطن بـدافع الحـس الـوطني وبحكـم عملهـم العسـكري والفـدائي، فجـاء

القصف الشديد وسياسة الترويع والحرب النفسية الإعلامية والتخاذل وخيانات بعض القادة في بغداد -بحجة التهلكة والاختلاف مع صدام- ليفل من عزمهم, لاسيما في الأسبوع الثالث بعد استخدام الأسلحة المحرمة, وقد حدثني أحد الثقات أنه علم من مصادر موثوقة أن ثلث الاحتياطي الستراتيجي للصواريخ الأمريكية قد نفد خلال الأسبوع الأول من الحرب, وهو الاحتياطي الذي تراكم خلال الحرب الباردة وما بعدها في حلف الناتو والأساطيل الأمريكية لمواجهة حلف وأرشو وروسيا ويوغسلافيا بعد تفكك الاتحاد السوفيتي في مطلع التسعينات.

معارك الدورة والسيدية والزعفرانية

حدثني أحد الثقات من ضباط الجيش أنه كان في مقر لأحد قيادات الجيش في جنوب بغداد يوم الجمعة 4/ 4، وإنه شاهد إنزالا أمريكيا على منطقة الرستمية، فذهب مع رفاقه إلى أحد المسؤولين في القيادة ليبلغه بالإنزال وإنهم رأوا رتلا مكونا من أكثر من ثلاثين مدرعة في الرستمية متجهة إلى الزعفرانية جنوب معسكر الرشيد، ثم تم إبلاغ الجهة المسؤولة عن متابعة الإنزالات وكان مقرها في الكريعات في شمال بغداد، فأجابهم اللواء المسؤول عن الإنزالات بأن شاغلوهم بقوة موقعية، فقالوا له: ليس لدينا قوة للمشاغلة لأننا موقع قيادة ولا نمتلك غير الأسلحة الخفيفة وبضع قاذفات الدروع لحماية الموقع،

فأجابهم: سيتم إرسال قوة من الحرس الجمهوري إلى المكان، وفي اليوم التالي فوجئ هذا الضابط ورفاقه بأن إنزالا ثانيا قد وقع في نفس المكان بعد 24 ساعة دون أن تصل أية قوة إلى هذا المكان، حيث عمل الأمريكان عقدة محصنة في المكان وبدأوا يغذون قواتهم في الزعفرانية ومعسكر الرشيد. إن هذه الحادثة تصور حالة الفوضى والارتباك التي كان الجيش يمرّ بها أثناء الإنزالات العسكرية على ضواحي بغداد في الأسبوع الثالث من الحرب، لاسيما من النواحي الإدارية والخدمية والتباطؤ في سرعة الاستجابة لتداعيات المعارك حول بغداد. ولقد سبق ذلك بأيام قليلة بدء الإنزالات والهجمات حول بغداد ومحاصرتها في منتصف الأسبوع الثاني، والذي مهد له تصريح وزير الدفاع العراقي الغريب في حينه، حينما قال إن الأمريكان سيصلون إلى بغداد بعد خمسة إلى عشرة أيام، فبعد معركة اليوسفية بيومين التي التقى بها الحرس الجمهوري مع قوات التحالف، وقد تكبد الجانبان خسائر كبيرة وتمكن الحرس من تطهير المكان من قوات الانزال، حدث إنزال كبير في منطقة السيدية قرب جسر البياع السريع, وقد حدثت معركة كبرى بين الطرفين يومي الأربعاء والخميس 2-4/3/3 في هذه المنطقة على طريق الحلة- بغداد, وقد شاهدت بنفسي الدمار الكبير والآليات والدبابات العراقية المحترقة, أما الأمريكية فقد انتشلتها فرق الإنقاذ بعد المعركة, وقد تكبد الأعداء خسائر كبيرة كما أوضح البيان

العراقـي ليـوم الخمـيس 4/3 وكـادت قـوات التحـالف أن تصـل إلى جامعـة بغـداد في الجادرية في جانب الرصافة المقابل للسيدية لو قدر لهم أن يعبروا جسر السيدية، ولكن العراقيين اسـتطاعوا أن يلحقـوا بقـوات التحـالف خسـائر جسـيمة وأن يطـردوهم مـن السيدية على طريق الحلة, ويروي شـاهد عيـان أن قـوة مـن الأمريكـان اسـتولت عـلى الجسر من جهة الكرخ نهار الأربعاء وكانت تطلق النار على أي عراقي ترصده حتـى إذا كان طفلا للمسافة الممتدة من مفرق الدورة والمصفى جنوبا وحتى جسر البيـاع شـمالا وذلك لارهاب الناس, ولا تزال آثار تلـك المعركـة والـدروع والسـيارات المحترقـة والمبـاني المدمرة إلى اليوم 15/ 4 - حيث رأيتها بنفسي- ممتدة من مصافي الدورة حتـى السـيدية وجسر البيـاع وجـامع أم الطبـول، ويقـال أن صـدام وقصي قـد ظهـرا لأول مـرة وهـم يشاركون الجيش والحرس والفدائيين في هذه المعركة, ثـم ظهـر صـدام ثانيـة في معركـة اليرموك عند ساحة النسور يوم الجمعة 4/4ث ثم المنصـور فالأعظميـة قبـل أن يختفـي نهائيا يوم الجمعة 4/11.

وحدثني أحد شهود العيان في السيدية أنه شهد معركة السيدية يـوم الثلاثـاء 4/1 وقـد شاهد بعينه صدام حسين مع ابنه قصي يقاتل في هذه المعركـة، وقـد شـاهده في سـيارة جيب عسكرية فيها مدفع رشاش مقاوم للطائرات، وكان صدام يحمل على كتفه قاذفـة دروع، وقد سمع من الآخـرين أنـه أصـاب دبابـة أمريكيـة وأحرقهـا في ميـدان المعركـة

وكان معه عدد كبير من الفدائيين وقوات الحرس والجيش, ومن الجدير بالذكر أن العراقيين لاسيما الفدائيين وقوات الدروع قد لاحظوا أن الدبابة الأمريكية مصنوعة بطريقة تقاوم قاذفات الدروع RBG7، وذلك لكونها مجهزة بمجال مغناطيسي يقوم بحرف القذيفة عن الدبابة وانفجارها بعيداً عنها، ولا يمكن إصابتها إلا بنوع من صواريخ (نوع تاو) أو قاذفات هاون كان الجيش العراقي قد حصل عليها من إيران والكويت خلال الحربين الماضيتين حيث تم أخذها كغنائم حرب, ولكن الوقت اللازم والخطوات المطلوبة لتجهيزها للإطلاق طويلة, كما أنها تحتاج إلى خبرة فنية عالية، ونتيجة الممارسة وجد المقاتلون العراقيون أن تغليف القذيفة من نوع RBG7 بشريط بلاستيك يجعلها تصيب الهدف وتعطل التأثير المغناطيسي على القذائف، وفعلاً تم العمل وفق هذا الأسلوب وكان ذو أثر فعال في المعارك التالية وقد جرب ذلك بشكل كبير في معركة السيدية ومعركة المطار ومعركة الأعظمية وأدى إلى تدمير مئات الدبابات والدروع والناقلات الأمريكية. وقد حدثت معركة السيدية بعد معركة تطهير طريق المحمودية- اليوسفية يوم الاثنين 1/ 4، ويضيف شاهد العيان أنه بعد معركة اليوسفية قامت قوات التحالف بتنفيذ سبعة إنزالات في طريق الحلة (المحمودية- اليوسفية) من القوات المحمولة قوام كل إنزال بحدود ثلاثة آلاف جندي، وإن هذه الإنزالات مهدت لمعارك الدورة- السيدية والتي سبقت إنزال المطار

ومعارك أبي غريب والعامرية في مطلع الأسبوع الثالث بعد الخميس 4/3 , والتي توّجت بمعركة المطار الحاسمة يوم الأحد 6/ 4 ومعركة القصر الجمهوري والمنصور يوم الثلاثاء 8/ 4 وأخيراً سقوط صدام يوم الأربعاء 4/9.

من المؤسف حقا أن نقول أن أمريكا راهنت على الداخل وتأييد العراقيين لها وراهن صدام على الخارج والرأي العام العالمي, وكلاهما قد فشل، وقال شعب العراق كلمته في النهاية وصاغها بالدم خلال أسابيع الصمود الثلاثة, فكبد الغزاة خسائر غير متوقعة اضطرته إلى استخدام وسائل غير نظيفة ولا شريفة لكي يحسم الحرب لصالحه.

كما حدثني أحد شهود العيان أنه شهد معركة التويثة جنوب معسكر الرشيد والطاقة الذرية، حيث كان الهرج والمرج في بغداد قد جاوز الحد في يوم الثلاثاء 8/ 4 وكان الوضع مضطرباً والجيش محتاراً بين أوامر الاستسلام وروح المقاومة والتصدي للدفاع عن بغداد، وبينما كانت قطعات من الحرس الجمهوري في طريقها للانسحاب، انبرى عقيد ركن من الحرس في منطقة التويثة في طريق المدائن- معسكر الرشيد، وقال للضباط والجنود من وحدته، إنني قررت أن أبقى هنا لأدافع عن بغداد ولن أنسحب حتى أموت هنا أو يكتب الله لنا أمراً، ونزع رتبته من كتفيه، وقال اليوم ليس يوم رتب ولكنه يوم جهاد وتصدي للمعتدين، فمن يريد أن يبقى معي فمرحباً به، وإلا

فالبيت ليس ببعيد ونحن على أطراف بغداد، فبقي معه أكثر من 150 فدائياً من وحدته التي كانت منسحبة من معارك العزيزية والمدائن. وبقوا ينتظرون ويترقبون رتلاً أمريكياً مكوناً من ستين دبابة كان قادما من طريق المدائن خلف السدة المحاذية للطاقة الذرية، فهجموا عليهم دفعة واحدة كأنها هبة رجل واحد، واستطاعوا أن يدمروا 45 دبابة من الرتل ويقتلوا مئات الجنود الأمريكان ولم يستشهد منهم سوى 25 شهيدا، وهكذا انتهت معركة التويثة بنصر مؤزر لجيش العراق ورجاله المخلصين.

معركة المطار

حدثني أحد شهود العيان من ضباط الحرس الجمهوري في منطقة الفرات الأوسط (المسيب- الحلة- الكوت) إنه لحد منتصف الأسبوع الثالث للحرب كانت معنويات الجيش والحرس والشعب عالية جداً ولم يستطع الأمريكان أن يحرزوا أي نصر يمكن أن يفتخروا به، وإن خسائرهم كانت كبيرة وغير اعتيادية من وجهة نظرهم, وقد طردوا خارج المدن العراقية في الصحراء وبين الرمال, وإن أم قصر استطاعت الصمود أمام قوات التحالف أكثر من أسبوعين, وإن الفرقتين 11 و 51 من الجيش استطاعت أن تقهر قوات التحالف وتصد هجماتهم العديدة، وكذا الأمر في البصرة والناصرية والسماوة والنجف وباقي المدن العراقية، غير أن الأمر قد تغير في منتصف

الأسبوع الثالث، حين تم نقل وحدتهم وانسحابها من المسيب إلى بغداد/الدورة بعد معارك كربلاء والحلة، حيث انسحبوا إلى بغداد لإعادة تنظيم وحدتهم، وقد اضطروا إلى العودة إلى بغداد بملابس مدنية واستخدام سيارات مدنية لنقل عدتهم وأسلحتهم، واشتركوا في معركة الدورة- السيدية، وحدثت معركة كبيرة في تلك المنطقة بين قوات الحرس والجيش وبين القوات الأمريكية، استشهد منهم 300 ثلاث مائة جندي وأكثر من 7000 سبعة آلاف مدني، وتم تكبيد العدو خسائر فادحة وصلت إلى أكثر من ألفي قتيل وثلاثة آلاف جريح مع عدد من الدبابات والآليات والناقلات وصلت إلى أكثر من مائة, كما قدرها هذا الضابط ومن معه. ثم حدثت معركة المطار في اليوم التالي بعد إنزال المطار يوم الخميس ثم عودتهم بعد طردهم يوم السبت، وارتباك الوضع العسكري العراقي في بغداد يوم الأحد، ويذكر هذا الرجل البطل أن الأمريكان كانوا مرعوبين من الحرس والفدائيين والجيش العراقي, ولكن التخاذل والخيانات الكثيرة لبعض آمري الوحدات لاسيما الحرس وقيادة الأركان والاختراقات التجسسية أدت إلى إبادة عدة فرق وألوية في حزام بغداد منها اللواء المدرع العاشر الذي كان أقوى لواء مكلف بالدفاع عن بغداد, حيث دمّر أثناء تنقله في القصف الجوي. لقد تآمر عدد من الآمرين على بغداد وبيعها للمحتلين, وقد أدى هذا الارتباك والاضطراب, ومن ثم الاختراق والتخاذل وعمل صفقات مع القوات المحتلة، إن قام صدام

بإعدام أكثر من 30 ضابطاً كبيرا من قادة الحرس الجمهوري وأركان الجيش والآمرين وبعض قيادات الجيش، وقد ذكرت لي أسماء عديدة ولكن الأمانة العلمية تقتضي عدم ذكر أياً منها خشية اتهام الأبرياء بهذه التهمة الخطيرة المخلّة بالشرف والانتماء للبلد. إن إنزال المطار بدأ الأربعاء وتعزز الخميس من عقدة أبي غريب وقد حسمت المعركة السبت لصالح العراق ثم زاره الصحاف بصحبة الصحفيين الأحد صباحا، وبدأ الإنزال الثاني الأحد بعد الضربة النووية التكتيكية حيث استقر وضع المطار لصالح قوات التحالف وظهر الصحاف كاذبا بحركة إعلامية سريعة وبأسلوب الكاوبوي وهوليود بعد الضربة النووية المحدودة على منطقة تواجد قوات الحرس في المطار.

وحدثني أحد شهود العيان من ضباط الحرس الجمهوري الذين شاركوا في معركة المطار، وهو يصف الجثث المحترقة والمتفحمة التي شاهدها بعينه، فقال رأيت أحد الجنود المتفحمين كلياً في الطابق الثالث لإحدى بنايات المطار، والغريب أننا لم نجد أي كسر في الزجاج أو هدم في البناية. وهو يتساءل مستغرباً كيف تفحم هذا الجندي دون أن تتضرر البناية؟ كما وجد شهيداً آخر قد احترق كل جسمه ولم يبقَ منه سوى الهيكل العظمي، ولم يعرف أين ذهب لحمه المحترق وكيف فصل عن العظام. ويقول أنه شاهد شهيداً آخر متفحماً وحين مسك يده فُصلت عن جسمه مباشرة وسقطت بيده

وعلى الأرض، وشهد مشاهد أخرى كثيرة لكنه اكتفى بتلك الأمثلة ليقول, أن هناك سلاحاً مجهولاً قد استخدم لإبادة كل من كان في المطار في تلك الساعة، ولابد أن يكون ذلك السلاح جديداً ومحرماً دولياً لأن الأمريكان قد منعوا الصحفيين والإعلاميين من دخول المطار إلا أماكن صغيرة محددة لتصوير احتلال المطار يوم الاثنين 7/ 4 ثم أصبح الحظر على المطار كلياً بعد قصف فندق مريديان ومركز قناة الجزيرة صباح الثلاثاء 4/8 ولغاية 18/ 4.

معركة بغداد والقتال البطولي لشعب العراق

مع مطلع الأسبوع الثالث للحرب التي ادعى المخططون لها إنها ستكون حرباً خاطفة ونظيفة خالية من أي أثر من آثار الأسلحة المحرمة، رغم أنهم بدؤوها بطريقة غير شرعية ولا قانونية، وسنرى مدى النظافة فيها ونحن نتحدث عن الأحداث التالية الأليمة، في يوم الأربعاء 4/2 أو قبله بيوم ابتدأت أولى مراحل معركة بغداد الحاسمة بعد أن استطاع الغزاة عبور الفرات باتجاه العمارة والكوت عن طريق الناصرية والبصرة، وباتجاه الحلة عن طريق النجف وكربلاء، ونشبت معارك طاحنة على مشارف الحلة والمسيب والكوت والهندية، والتي كبدت قوات التحالف خسائر جسيمة أخرى، فضلاً عن الخسائر الكبرى التي كبدتها عمليات الفدائيين والعشائر العربية والجيش في الصحراء الغربية وعلى أطراف المدن, والتي لم

يستطع أحد أن يتصورها أو ينقل مشاهدها إلا عدد من شهود العيان والأخبار المتناثرة هنا وهناك بسبب بطش الإعلام الأمريكي وهيمنته على الساحة، إن الارتباك والتضعضع الذي آلت إليه قطعات الجيش العراقي والحرس الجمهوري في جنوب ووسط العراق وتحديداً حول أسوار بغداد الاعتبارية في أبي غريب واليوسفية والمحمودية والصويرة والعزيزية والمدائن والنهروان والتاجي والراشدية، بسبب القصف الجوي الشديد والمستمر والذي دام أكثر من أسبوعين حتى اللحظة التي بدأت قوات التحالف بإدخال رموز المعارضة العراقية وأتباعهم في البصرة والناصرية والنجف كأحمد ألجلبي ونزار الخزرجي وعبد المجيد الخوئي، ثم في سامراء وفيق السامرائي جعل موازين الحرب قد اختلفت وبدأ الإعياء والارتباك يدب في الجانب العراقي بسبب ما ذكر أعلاه وبسبب عدم تكافؤ ميزان القوى بين القوة العظمى الغازية ومجاميع الجهاد والتصدي العراقي، غير أن الحقيقة التي لا يمكن لأحد إنكارها هي إن وحدة الصف والروح العالية والصمود البطولي الذي أبداه العراقيون سنة وشيعة، جيشاً وشعباً، لاسيما في جنوب وغرب العراق، قل نظيره ولم تكن بحسبان قوات التحالف، ففي البصرة والناصرية قاتل السنة والشيعة جنباً إلى جنب- وكذا في الفرات الأوسط- هؤلاء الطامعين بروح لم نسمع عنها إلا في ثورة العشرين في مطلع القرن الماضي ضد الغزو والاحتلال الإنكليزي بعد الحرب العالمية الأولى.

كما قاتلت عشائر الدليم والجبور والعشائر التي ائتلفت معها في الأنبار والموصل ببسالة رائعة كبدت العدو خسائر كبيرة اضطر إلى إخفائها بكل السبل والوسائل التي يمتلكها عن طريق فرق الإنقاذ المتطورة والسمتيات المجهزة بكل معدات الإنقاذ والإخلاء، وعن طريق الخداع الإعلامي والكذب المتكرر والتصريحات المتناقضة بين قادتهم، كما قاتل الجيش والحرس والفدائيون بتراس وشجاعة قل نظيرها، كما سمعنا عن الفرقة 51 الشجاعة في الفاو التي أشاع الغزاة -كذبا- أنها استسلمت لهم, واللواء المدرع 45 والفرقة المدرعة السادسة وألوية الحرس الجمهوري في البصرة والناصرية والنجف، غير أن العدو كان مصمماً على احتلال البلد تحت مختلف الحجج وبكل الوسائل والقدرات التي تمتلكها هذه الدول الكبرى المتحالفة ضد بلدنا الأعزل المقهور، ولقد صرح أحد المسؤولين الأمريكان أنهم مصرون على احتلال العراق حتى لو فقدوا 65% من قوتهم المتواجدة على أرض العراق أي ثلثي القوة التي جاؤوا بها من وراء البحار، وفعلاً فقد تكبد هؤلاء المحتلون من القوات الخاصة وقوات البحرية والقوة البريطانية ما يزيد على 20 ألف قتيل وأكثر من 30 ألف جريح، وعدد كبير من الأسرى الذين ربما قتل معظمهم بعد أن أصبح سقوط صدام وشيكا ومحتما، وهذه الحصيلة هي الصورة الحقيقية للصمود العراقي أمام المحتلين مهما حاول العدو وإعلامه طمس تلك الحقائق وأخفوها عن شعوبهم المخدوعة.

لقد تمكن هؤلاء البغاة من العراق بحربهم النفسية الإعلامية وقدرتهم على إسكات الإعلام العراقي وقنواته البسيطة، فقد استطاعت قوات التحالف في مطلع الأسبوع الثالث أن تدفع بثلاثة أرتال باتجاه جنوب غرب بغداد، الأول عن طريق كربلاء والحلة باتجاه المحمودية- اليوسفية، والثاني عن طريق الفلوجة- بغداد باتجاه أبي غريب، والثالث عن طريق الكوت- الصويرة- بغداد باتجاه المدائن- السيبة. ثم قامت بإنزالات عديدة جنوب غرب مدينة بغداد في اليوسفية وأبي غريب والدورة/ السيدية والزعفرانية/معسكر الرشيد في أيام الأربعاء والخميس والجمعة 2-4/4 من الأسبوع الثالث للحرب، ثم قامت بعدة إنزالات أخرى سبقت إنزال ومعركة المطار، في النهروان والرستمية والعبيدي على طريق بعقوبة- بغداد القديم، مع إنزالات متفرقة أخرى صغيرة في مواقع عديدة من بغداد، فضلا عن الأثر العنيف للقصف الجوي المستمر على قوات الحرس الجمهوري حول بغداد.لقد كانت خطة قوات التحالف لتدمير قوات الحرس المؤهلة لصد أي هجوم على بغداد أن تضطرها للخروج من مواقعها الحصينة ليسهل اصطيادها بالطائرات والصواريخ فكان ذلك هو الهدف الرئيسي من كثرة الإنزالات حول بغداد, وكانت تريد من هذه القوات التي كانت بحدود ثلاثة فيالق التحرك من مواقعها للاشتباك مع العدو في مواقع الإنزال العديدة لتعريضهم للقصف العنيف والإبادة بعد القضاء على الإنزال, كما سيؤدي ذلك إلى إرباك

القطعات بسبب كثرة الإنـزالات، وفي يـوم السـبت 5 /4 كـان إنـزال المطـار قـد توسـع وتحصن، حيث تمكن الأمريكان من عمل عقدة محصنة في أبي غريب واختراق المطار من خلالها، وهنا حدثت معركة ضارية بين ألوية الحرس الجمهوري والفدائيين من جهة وبين قوات الإنزال، وتم حسم المعركة فعلاً خلال يومين لصالح العـراق وطـرد الأمريكـان مـن المطار بعد تكبيدهم أكثر من سبعمائة قتيل وأكثر مـن مائـة أسـير مـع مئـات الجرحـى الذين تم إخلاؤهم من قبل فرق الإنقاذ الأمريكية فضلا عـن مئـات الآليـات والـدبابات والناقلات. ومع بدء إنزال المطار يوم الخميس 4/3 انقطع التيار الكهربائي في بغـداد دون أن نعلم سبب ذلك, وسبق ذلـك الحـدث بيـومين هجـوم عنيـف وشرس عـلى منظومـة الاتصالات في السنك والمأمون والأعظمية، وقبل الحديث عما جرى من قضايا وانتهاكـات مروعة في يـوم الأحـد، نؤكـد قـول شـهود عيـان عـن معـاودة قصـف الأحيـاء السـكنية والمواطنين العزّل في معظم أحياء بغداد كالدورة والمنصور والحرية والشعلة والزعفرانيـة والأعظميـة وغيرهـا مـن الأحيـاء، كـان بعضـها بقنابـل الانفـلاق العنقوديـة التـي يحـرّم استخدامها ضد المدنيين والأحياء السكنية، كل ذلك للتمهيد لدخول المعركة الحاسـمة في بغداد.

لقد كانـت سـتراتيجية قـوات التحـالف في قصـف محطـات توليـد الطاقـة الكهربائيـة تعتمـد مبـدأ إيقـاف وشـل هـذه المحطـات دون تـدميرها، فقد كانـت طـائرات قـوات التحـالف ترمـي عـلى هـذه المحطـات بكـرات

خاصة تحتوي على خيوط كاربونية، وحين تسقط هذه الخيوط الكاربونية على الشبكة تؤدي إلى توقف اضطراري للشبكة shut down فتتوقف المحطة عن العمل، ولا يمكن إعادة تشغيلها, لأنه في حالة إعادة التشغيل تقوم الطائرات بقصفها وتدميرها، وهذا ما حدث لمحطات التوليد والتوزيع الكبيرة في البصرة والناصرية في الأسبوع الأول للحرب، ومحطات التوليد الكبيرة حول بغداد يوم الخميس 4/3 مساءً بعد الإنزال الأول على المطار، حيث قطع التيار الكهربائي عن مدينة بغداد، ثم عاد بشكل متقطع يومي الجمعة والسبت ليتوقف نهائياً منذ يوم الأحد 4/6 حتى يوم السبت 4/26 حيث تم إعادته جزئيا في بغداد بعد تراجع حالة الانفلات الأمني وأعمال السلب والنهب وعودة جزء من الموظفين إلى دوائرهم لاسيما الدوائر الخدمية ومنها الكهرباء والماء.

كيف حسمت معركة بغداد

في لحظات التداعي والانهيار يصمد من يصمد ويضعف من يضعف، وفي تلك الساعات التي أعلن وزير الإعلام الصحاف طرد الأمريكان من المطار وذهب بالصحفيين والمراسلين إلى موقع المعركة صباح الأحد 4/6، صدق الجميع خبر اندحار القوات الأمريكية في معركة المطار، لكن الذي حدث قبل وبعد هذه الساعة أمر يجعل الحليم حيران ويشيب له رؤوس الشرفاء, فقد حدثني أحد

أفراد الحرس الجمهوري بأن الاضطراب الذي حصل منذ ليلة السبت حتى الثلاثاء وهـي الأيام العصيبة التي سبقت سقوط النظام وفقدان سيطرة صدام على مقاليد الجيش والحرس وكافة مفاتيح البلد الأخرى، وتحول صدام بعدها إلى زعيم عصابة يتجول في بغداد بين المنصور والأعظمية والكاظمية والعطيفية ثم يختبأ كأحد صعاليك بغداد أيام الشطار والعيارين في أزقة الأعظمية الضيقة ثم يختفي بعدها نهائياً. لقد حدثني هذا الضابط أنه منذ السبت والأيام التي تلت تم الاتصال بمعظم قواد الحرس الجمهوري وآمري الوحدات على الهاتف الشخصي -علماً بأن الاتصالات كانت مقطوعة بسبب قصف معظم بدالات بغداد – وأبلغوهم بكلام عربي وربما بلهجة عراقية، إننا قوات التحالف وسندخل بغداد خلال الأيام القادمة، فإذا لم تستطع أن تكون معنا، فإياك أن تحارب أو تأمر جندك بالقتال لأنك في هذه الحالة ستعتبر مجرم حرب، وأضاف بأن آمِرَهم حين أبلغهم بذلك قال لهم بأن بقية الآمرين قد تلقوا مكالمات مشابهة، ويمكن إضافة عوامل أخرى إلى عوامل الحسم التي جيرها الأمريكان لخدمة أهدافهم, منها كما قلنا أن المعارضة التي دخلت المدن الجنوبية استطاعت أن تحدث ثغرة في وحدة الصف الوطني وأن تولد بعض البلبلة والاضطراب في مسألة موقف العراقي, هل سيكون لمناصرة النظام أم لمحاربة الغزاة، مع ما أحدثه القصف في مواضع الحرس وتجمعاته, حيث كانت الجراح التي أحدثتها الصواريخ والطائرات

عميقة والخسائر فادحة، ووصلت في بعض المواقع إلى أكثر من 70%، علاوة على الأثر المدمر للتفوق الجوي أو بالأحرى انعدامه في الجهة المقابلة والضعف والإنهاك والتدمير الذي أصاب قطاعات الدفاع الجوي والصاروخي المستهدفة والمحددة سلفاً كأهداف خطرة لابد من تدميرها. إن هذا الجو الرهيب الواسع الاضطراب قد ولد اضطراباً وضعفاً في أوساط المدنيين في بغداد, وقد كان القصف الوحشي عليهم يزيدهم هلعا واضطرابا وهم يرون الشهداء من الأطفال والنساء في البيوت التي تهدمت, لاسيما ما حدث في راغبة خاتون والشعب والعامرية والدورة والجهاد والسيدية والبلديات والأعظمية والمأمون ومناطق أخرى كثيرة, وقد رأيت بنفسي آثار القصف الوحشي على البيوت السكنية والمواقع المدنية والخدمية في معظم هذه الأحياء في بغداد كالبدالات والأسواق المركزية في المنصور وكرادة مريم والشعب وسوق المستنصرية وغيرها عدا المواقع التي لم أتمكن من زيارتها والإحاطة بها. كما تم قصف وزارة الإعلام وقنوات البث التلفزيوني والإذاعي في بداية الأسبوع الثاني, واستطاعت الدولة أن تجد بدائل للبث التلفزيوني والإذاعي ولكن بقدرات فنية ضعيفة، وكان البث التلفزيوني الفضائي العراقي قد تم قصفه مبكراً في الأسبوع الأول للحرب، واستطاع العراق إصلاحه، لكنه قصف هذه المرة في الأسبوع الثاني مع وزارة الإعلام ومبنى الإذاعة والتلفزيون في الصالحية لكي يتم إسكاته

نهائياً، وكنت قد شاهدت مبنى المحطة الفضائية في الأعظمية بعد قصفها مباشرة وقد تحولت إلى ركام من الأنقاض, ثم تكرر قصف بدالة الأعظمية أربع مرات (إلى أن تحولت إلى ركام أيضا مع البنايات المحيطة بها) حتى يوم الاثنين 4/7 وهو اليوم الحاسم في معركة بغداد. كما رأيت المواقع المدنية التي قصفت في راغبة خاتون وسومر والشعب والتي راح ضحيتها مئات الشهداء والجرحى من النساء والأطفال والشيوخ, وقد تم تغطيتها من قبل القنوات الفضائية الأوربية والعربية والصحفيين الأجانب ولقد رأيت إحدى الصحفيات الفرنسيات وهي تبكي حين جاءت لتصور الشقق والمنازل التي تدمرت واحترقت بسبب قصفها بصاروخ أمريكي في حي الشعب وهي ترى أمام عينها أشلاء الأطفال والنساء وترى الجرحى وكانوا بالعشرات وترى النيران تأكل المباني والسيارات التي كانت تسير في الشارع المؤدي إلى طريق بعقوبة بغداد ولم تتحمل هذه الصحفية وحشية أصحاب الحضارة ودعاة الحرية وهم يدمرون كل شيء حضاري وإنساني في العراق ويقتلون المدنيين الغافلين باسم تحريرهم وتوفير السلام لهم, لقد كان بكاؤها مفرطا حتى سمعت صراخها ونحيبها, إن كل ذلك أدى إلى اندفاع عدد كبير من المواطنين إلى الهرب خارج بغداد، بشكل جماعي مرعب، لاسيما إذا ما علمنا أن معظم طرق بغداد -المحافظات قد أغلقت كطريق الرمادي وطريق الحلة وطريق الكوت وطريق بعقوبة

القديم، ولم يبق إلا طريقان هما طريق الموصل وطريق بعقوبة الجديد، في شمال وشرق بغداد. فهرع الناس الذين لم يخرجوا في الأيام السابقة للهروب الجماعي مع عوائلهم من بغداد صوب ديالى وسامراء. ولقد حدثني ذلك الرجل من قوات الحرس أننا كنا نسمع بتلك التطورات السريعة, والجنود والضباط يتهامسون فيما بينهم بضرورة الهرب والنجاة قبل أن تغلق كافة الطرق، لاسيما وأن معظم هؤلاء العسكريين كانوا من أبناء الموصل والرمادي وديالى. فإذا ما تم محاصرة بغداد وأغلقت الطرق فإننا سنموت حتماً بعيداً عن أهلينا. هذه كلها كانت أراجيف وإرهاصات الحرب النفسية الإعلامية التي تم ضخها وتسليطها على هذا الشعب الصامد وجيشه المغوار, ولكن هذه الأمور لن تحسم المعركة التي يريدها الأعداء، فماذا يفعلون وهم يمتلكون كل أنواع الأسلحة من السلاح الخفيف والمدفع والدبابة والطيارة حتى أسلحة التدمير الشامل كالنووي والبايولوجي والكيمياوي, وهم الذين خدعوا العالم وكذبوا عليه بأنهم جاءوا يبحثون عنه في بغداد، وإن كان وُجِدْ, فهم الذين أعطوه لصدام ودمروه في سنين الحصار الأولى عن طريق لجان التفتيش، ولكن يبدو أنهم يتصرفون معنا كما يقول الله تعالى: **﴿إن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة﴾** لا عهد ولا ذمة ولا قانون ولا محرمات..وهكذا كان الأمر, فقد تركوا الصحاف يخرج من المطار

مع الصحفيين والإعلاميين، ثـم وسـوس لهـم الشـيطان أن يضربـوا قـوات الحـرس الجمهوري التي دخلت المطار وطردت الغزاة بسلاح مجهول من أسـلحة التـدمير الشامل، وقد روى بعض شهود العيان ممـن رأوا الجثـث المحترقـة المتفحمـة أنـه سلاح نووي تكتيكي إشعاعي محدود التأثير سريع الاختفاء, وهناك من يقـول إنـه قنبلة مايكروويف لمساحة 200×200 م تجعل كل مـن في داخـل هـذه المسـاحة يشتوي كما يشتوي اللحم في فرن المايكروويف في المطبخ وقد أوردت هـذا الخـبر عدة قنوات فضائية عربية وأجنبية يوم الاثنين 4/14 أي بعد أسبوع من الحادث، مما أدى إلى إبادة ثلاثة ألويـة مـن الحـرس التـي قامـت فـرق الإنقـاذ الأمريكيـة بانتشالهم وإخفائهم ودخول قوات التحالف المطار بعد ساعات مـن ذلـك للمـرة الثانية لكي تثبت للإعلام العالمي كذب الصحاف وصدق إعلامـهم، وتجعـل صـوت العراق يتخافت تدريجياً حتـى يـتلاشى، وقـد بقـي دخـول المطـار محظـوراً عـلى الإعلام المحايد لمدة عشرة أيـام بعـد ذلـك الحـدث الرهيـب, وقـد روى لي بعـض الثقات أن مثل هذا الأمر تكرر في حي الفرات/ منطقـة الجهـاد، حيـث كـان فيـه موقع للفدائيين مما أدى إلى استشهاد عدد كبـير مـن الفـدائيين والمـدنيين وهـدم عشرات المنازل في الحي، وهناك أخبار تقول إن حي العامل وما خلفـه باتجـاه أبي غريـب وكـذا حـي المهديـة في الـدورة قـد شـهد اسـتخدام سـلاح محـرم مماثـل وستكشـف الأيـام القادمـة شـيئاً مـن هـذه الأسـاليب اللاشرعيـة التـي مارسـها

الأمريكان مع شعب العراق لاحتلال بغداد, بعدما يئسوا من الأساليب التقليدية، إن هذا الفعل الإجرامي وما سبقه وما لحقه من قصف فندق فلسطين مريديان وقتل الصحفيين, شاهد على بربرية الأمريكان والصهاينة وأساليبهم القذرة في الحروب, كما إنه دليل على جبنهم وخورهم وعدم قدرتهم على تحقيق أهدافهم إلا بالأساليب المحرمة وبكذبهم على العالم وتحجيمهم صوت الحق من الإعلام المحايد في كافة دول العالم لاسيما الإعلام الأوربي والإعلام العربي الحر.

إن هذه النتيجة التراجيدية المأساوية والطريقة اللا شرعية التي كسبوا فيها معركة المطار قد أذهلت الناس وأدت إلى الهرج والمرج والانهيار في النهاية، ثم تلا ذلك في يومي الاثنين والثلاثاء حركة إنزالات عسكرية وقصف شديد على كافة المحاور للإطباق على بغداد واحتلالها, حيث تمت السيطرة الكاملة على جانب الكرخ بأكمله بعد أن بدأت مؤسسات النظام تنهار بشكل مفاجئ يوم الثلاثاء لاسيما بعد قصف القصر الجمهوري ونجاح الإنزال فيه واختراقه ودخول قوات الغزو فيه, وقصف موقع اجتماع القيادة في المنصور، وقصف فندق مريديان ومقتل عدد من الصحفيين يوم الثلاثاء، وتدمير مبنى الإذاعة والتلفزيون بشكل نهائي وإسكات البث التلفزيوني وتحول بث الإذاعة (الموقع البديل) من التردد الموجي AM إلى بث محدود جداً على الـFM الذي دام يومين حتى يوم الأربعاء الساعة 10:20 ليلاً حيث انتهى بخطاب أخير لصدام حسين والسلام الجمهوري بعده،

ويعتقد أن البث كان من داخل الأعظمية ولم يسمعه أحد خارج الأعظمية في أحياء بغداد الأخرى. وكان ذلك الخطاب الحزين هو الخطاب الثالث والأخير خلال الحرب، والذي قص لنا النهاية القدرية لحكم صدام في العراق. فقد كان في علم اللـه وقدرته أن لا يقهر نظام صدام وبطشه إلا عصبة أعظم منه وأشد بطشاً وقوة، وتلك هي الأيام يداولها اللـه بين الناس لا معقب لحكمه ولا راد لقدرته ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

لقد واكب هذا السيناريو الأمريكي لحسم الموقف واحتلال بغداد يوم الثلاثاء 4/8 تحديداً، تفشي خبر صاعق انتشر بين الناس كالنار في الهشيم مفاده أن صدام قد قتل مع ابنه عدي وأن قصي قد هرب وأن أفراد حزب البعث قد قرروا الاستسلام وترك أسلحتهم في المقرات الحزبية والهروب والاختفاء السريع من الساحة. ولكن- في اليوم التالي- تبين أن صدام لازال حياً ولم يقتل في القصف أو في انقلاب كما ادعى الخبر، فقد ظهر صدام في الأعظمية ظُهر الأربعاء 4/9 ليكذب الخبر بشخصه، أما الحزب وقيادته فقد تبخرت فعلاً كما قالها صدام قبل عامين عند بدء الانتفاضة الفلسطينية، تعقيباً على ما جرى في حرب بوش الأب قبل عشر سنين، فقال بلهجة عراقية (قابل تبخرنا) وفعلاً تبخر الحزب وأجهزة النظام العملاقة كلها وفي ساعة واحدة, ولم نجد بيننا أحداً من أفراد الحزب المعروفين، فمعظمهم قد اختفى منذ الثلاثاء، أما البقية فقد اختفت تماماً صباح الخميس 4/10

مع باقي رموز النظام وأركانه من الجيش والشرطة والـدوائر الخدميـة، مـما ولـد فراغـاً كبيراً سبب الأحداث اللاحقة الأليمة، وتلك صفحة أخرى من السـلب والنهـب سـنتكلم عنها لاحقاً.

لقد تمركزت القوات الأمريكية شمال بغداد في القصر الرئاسي على كورنيش الأعظمية وفي كلية بغداد اللاهوتية التي بناها الأمريكان قبل أكثر من خمسين عاما على مساحة كبيرة شمال الأعظمية وقد بنيت كنيسة بجوارها، وكذلك تمركزت قوات التحـالف في الجزيـرة السياحية شمال بغـداد عـلى طـريق الفحــامة/ الراشـدية وبكثافـة عاليـة، وفي جنـوب بغداد استقرت في معسكر الرشيد وملعب الشعب الدولي, ومـن جهـة الكاظميـة تمركـز الأمريكان على طول طريق الموصل مـن بوابـة بغـداد الشـمالية حتـى منطقـة معسـكر التاجي, وقد رأيت أكثر من 700 دبابة وعجلة عراقية محترقة من جـراء القصـف المركـز ومعركة التاجي/ بوابة بغداد التي حدثت يـوم الأحـد 4/6 والتـي تكبـد المحتلـون فيهـا خسائر فادحة بالأفراد والمعدات, ولكن الإعلام العراقي كان قد أصيب بالإعيـاء والشـلل نظرا لكثرة الإنزالات العسكرية حول بغداد في تلك الأيـام الحاسـمة، مـما أربـك الوضـع العسكري والإعلامي في بغداد, فتم بهذه القوات المحمولة القضاء على آخر ما تبقى من قوة كبيرة في وسط بغداد بعد استخدام السـلاح النـووي المحـدود في المطـار واسـتخدام القنابل الثقيلة والعنقوديـة عـلى المنـاطق المدنيـة في بغـداد واشـتداد القصـف الجـوي

والصاروخي على كافة المحاور حول بغداد وفوقها. مما أدى إلى حسم معركة بغداد لصالح قوات التحالف يوم الثلاثاء 4/8 وانهيار النظام وحزبه, وذلك بعد أن أزيل صدام وأعوانه من القصر الجمهوري في نفس اليوم، ليختفي بشكل نهائي وغريب منذ الجمعة 4/11 وإلى الأبد من حياة الشعب العراقي الذي عاش في ظل حكمه المتسلّط حياة الذل والكفاف, ولم ينعم بالسلام والاستقرار طوال العقود الثلاثة التي كان صدام يقود دفة الحكم فيها، فلم تكن تنتهي حرب حتى يدخل الشعب في حرب جديدة أوسع دمارا وأخطر أثرا وأبهض ثمنا، فمن القمع والحرب الداخلية والتوترات إلى حرب إيران الطويلة ثم حرب الكويت فالحصار الظالم إلى الحرب الحالية التي كان من الممكن تلافيها لو إن صدام أذعن لصوت العقل ونصيحة الناصحين بترك السلطة لمن يختاره الشعب أو أية صيغة سياسية تخرج البلد من هذا الدمار والصدام غير المتكافئ بين العراق الذي أتعبته الحروب والحصار والحكم الدكتاتوري المتخلف وبين أكبر قوتين في العالم تمتلك تفوقاً جوياً وإعلامياً ليس له نظير في العالم.

لقد ظهرت بوادر الخلاف داخل القيادة العسكرية العراقية في نهاية الأسبوع الثاني, ومن أسباب هذا الخلاف الميدانية التي يمكن الإشارة إليها سببان أولهما, خطة قصي بفتح السدود والبحيرات المائية (كسد حمرين وسد القادسية في عانة وسدة الهندية وبحيرة الثرثار والحبانية

والـرزازة) بهـدف إغـراق أكـبر مسـاحة مـن الأرض جنـوب الحلـة والنجـف وكـربلاء والكوت, لكي يتم عزل بغداد والفرات الأوسط عن جنوب العراق وإعاقة تقدم قوات التحالف نحو بغداد, والسبب الثاني هو خطة نشر قطعات الحرس الجمهوري وآلياته داخل أحياء بغداد في جهة الكرخ لاسيما في الدورة والسيدية وحـي العامـل والجهـاد والعامرية وحي العدل والجامعة واليرموك, بحيث اضطرت القيادة العراقية إلى إخلاء بعض هذه الأحياء من المدنيين لاسيما في الدورة والسيدية, وقد كان أول تنفيذ ميداني لهذه الخطة يوم الأربعاء 4/2 أثناء معركة الدورة والسيدية, وكان القـادة المعترضـون على صدام وقصي يرون إن المساحات المائية ستعزل قطعات الجيش في الجنـوب عـن الإمدادات والإسناد من بغداد والوسط مما سيؤدي إلى محاصرتها وتدميرها لاسـيما في البصرة والناصرية والعمارة, وإن نشر قوات الحرس الجمهوري داخل الأحيـاء المدنيـة سيؤدي إلى وقوع خسائر فادحة بين المـدنيين وإلى تـدمير مدينـة بغـداد نفسـها, وأن فرض المواجهة والالتحام مع العدو خارج بغـداد وعـلى أسـوارها هـي الخطـة الأكـثر نجاحاً وفعالية في طردهم من بغداد وإطالـة الحـرب معهـم وكسـبها في النهايـة, لأن قـوات التحـالف لا تسـتطيع الصـمود طـويلاً لأنهـا تـخشى زيـادة الخسـائر البشريـة لاسيما إذا ما أستطاع العراق إيصالها إلى الإعلام العالمي. ولكن المشكلة التي واجهـت هــذه الخطــة وأفشــلتها في النهايــة هــي القــدرة العاليــة لقــوات التحــالف في

إنزال قوات كبيرة وفي عدة مواقع قد تصل إلى عشرة مواقع في آن واحد, وكان نزول هذه القوات المحمولة بدروعها وآلياتها مع فرق الإنقاذ في أبي غريب والدورة والزعفرانية(مثلاً) في وقت واحد قد أربك الوضع العسكري في بغداد وأضطر صدام إلى التفكير في تغيير خطة أسوار بغداد الحصينة, وقد أدى هذا الخلاف إلى ظهور أخطار جسيمة وحقيقية في بغداد, كما أدى إلى عزل وإعدام عدد من القادة العسكريين وإلى بداية الخلل في قيادة صدام وقصي للحرس والحزب, فكان صدام يرى أن سلامة النظام هي مقدمة لسلامة العراق وبغداد, في حين رأى البعض أن التهلكة ينبغي تجنبها للحفاظ على بغداد حتى إذا كانت على حساب النظام وبقائه. وقد حسمت معركة المطار الثانية واحتلاله يوم الأحد 4/6 الأمر ضد خطة صدام البديلة, وكانت بداية التردي والانهيار واستسلام قيادة الجيش والحرس والحزب تفادياً لما هو أخطر وأعظم من وجهه نظرهم التي لم تكن تخلو من تخاذل وترويع.

أهم الأسلحة الشاملة والمحرمة التي استخدمت ضد العراق

إن أهم الأسلحة المحرمة التي استخدمتها قوات التحالف وأسلحة التدمير الشامل التي التجأت إليها قوات التحالف لكسر شوكة الصمود العراقي واحتلال بغداد هي:

1- القنابل العنقودية المنفلقة التي سقطت على أحياء بغداد والمحافظات بكميات هائلة كالدورة والسيدية/ حي المهدية والجهاد/ حي الفرات والمطار ومعسكر الرشيد والعامرية والقصر الجمهوري وراغبة خاتون وسومر والشعب. وهذه القنابل يحرم القانون الدولي استخدامها في المدن وضد المدنيين لأنها شديدة التدمير، وهي تنفلق إلى ثلاثة آلاف قطعة (قنبلة صغيرة) تنفجر كل قطعة بشكل مستقل عن القطع الأخرى، وتغطي مساحة كبيرة تصل إلى 2000 متر مربع وتؤدي إلى تدمير وتهديم عشرات المنازل، كما حصل في المحمودية والدورة والسيدية والشعب وغيرها من الأحياء السكنية. وقد اعترف الإعلام الأمريكي باستخدام هذا النوع من السلاح وسقوطه على المناطق المدنية وادعى إنه استخدم 1500 قنبلة من هذا النوع أثناء الحرب، والحقيقة التي يقوم الإعلام الأمريكي إخفاءها أو تحجيمها دائماً تجعلنا نتوقع إنه استخدم أكثر من عشرة آلاف قنبلة عنقودية منفلقة في البصرة والناصرية والنجف وبغداد والأنبار وغيرها من المدن العراقية، وقد أصبح الخداع مألوفاً لدى إعلام قوات التحالف

ضمن خطة إعلامية وحرب نفسية للتوهين والتقليل من خسائرهم الجسيمة وقتلاهم وسقوط طائراتهم, بحيث اعتاد الناس سماع أخبار عن اصطدام طائرتين أو وجود أعطال فنية في الدروع والطائرات, وان الخسائر العديدة في قطعاتهم غالبا ما تكون بسبب تعرضهم لنيران صديقة وغيرها من الأكاذيب التي كادت أن تفضح وتكشف نقاط ضعفهم الإعلامية والعسكرية أمام صمود الشعب العراقي وجيشه, مما اضطرهم إلى إسكات وشل الإعلام العراقي المتواضع والإعلام العربي والعالمي المحايد في منتصف الأسبوع الثالث للحرب, وقصفهم الوحشي لهذه القنوات الحرة التي ترفض تزييف الواقع وتكشف جبن وخوف الجندي الأمريكي رغم سلاحه المتطور وإمكانياته العالية.

2- قنابل ثقيلة تزن 10 طن تقذفها الطائرات نوع B52 وغيرها على الدوائر الخدمية والبدالات وأجهزة الاتصالات والوزارات والأحياء السكنية, وقد استخدمت أثناء التصدي والمقاومة العراقية في البصرة والناصرية والسماوة والنجف وسدة الهندية والحلة واليوسفية وأبي غريب والمطار والرضوانية والزعفرانية، وكانت هذه القنابل الهائلة الفتاكة تحدث اهتزازات أرضية تصل إلى 4-5 درجات بمقياس رختر للزلازل. كما استخدمت الحاويات المتفجرة التي ترميها الطائرات والتي تحتوي على كمية كبيرة من القذائف والقنابل الشديدة الانفجار والتي تزن مئات الأرطال من المواد

المتفجرة التي تقذف بجحيمها وحممها على المدن العراقية وعلى المدنيين والعسكريين سواء بسواء.

3- القنابل الصوتية التي تولد الرعب والترويع في نفوس المدنيين من الأطفال والنساء, وقد ازداد استخدام هذه القنابل خلال الأسبوع الثالث من الحرب في بغداد. وكنا نسمع أصوات القصف المرعبة لهذه القنابل الصوتية لساعات طويلة متواصلة خلال الليل. وكانت تحدث ارتجاجاً قويا في أركان البيت وعصفا مخيفا يكاد يقلع الأبواب والشبابيك ويحطم الزجاج.

4- القنابل النووية التكتيكية التي استخدمت في حسم معركة المطار الثانية والرضوانية وأبي غريب وحي الفرات، والتي أدت في المطار إلى تدمير ثلاثة ألوية من الحرس الجمهوري والقضاء عليها قضاءً مبرما. كما أكد لي شهود عيان من المدنيين والحرس الجمهوري في هذه المناطق, وإن هذا السلاح غير التقليدي قد أدى إلى حرق وتفحم جثث الشهداء في المطار وطريق العامرية أبي غريب، وكذلك حول النجف في المعركة الأخيرة قبل معركة بغداد يوم الثلاثاء 4/1.

5- القنابل المايكروويفية المحدودة التأثير والتي استخدمت في العامرية/أبي غريب والمنصور والقصر الجمهوري ومناطق أخرى والتي أدت إلى مقتل الآلاف وحرقهم وتفحمهم وكأنهم داخل أفران المايكروويف بحيث شاهد عدد كبير من شهود العيان الجثث

المتفحمة داخل السيارات على طريق أبي غريب دون حدوث ضرر واضح في السيارات التي كانوا يستقلونها. وكذلك بين المدنيين والعسكريين في الشوارع, ويروي شهود عيان عن الجثث المحترقة والمتفحمة أنها كانت تبدو مشوية من العظم حتى الجلد الخارجي.

6- القنابل الجرثومية والبايولوجية، حيث انتشر في بغداد يوم الأربعاء 15/ 4 نبأ سرقة حاضنات لتوليد أنواع من الفيروسات الخطيرة من المختبرات المركزية في وزارة الصحة في ساحة الأندلس والمستشفى الاولمبي, وقد سمعنا بذلك في منازلنا ليلة الأربعاء عبر مكبرات الصوت وعبر الإذاعات أيضا، ويمكن أن تكون هذه القصة حقيقية ومن إفرازات أعمال السلب والنهب التي تلت الحرب مباشرة، وقد تكون خدعة لترويع وترهيب سكان بغداد، وقد تكون أيضا مقدمة للتلويح باستخدام قنابل جرثومية وبايولوجية واتهام نظام صدام أو عصابات السلب والنهب بها. وكل شيء وارد ومتوقع في هذه الظروف وفي جو يسوده فقدان الثقة بين قوات الاحتلال والشعب. كما ذكر أنه قد تفشى وباء اللشمانيا Leishmania في جنوب العراق, حيث أعلنت قوات الاحتلال يوم الخميس 4/17 عن انتشار هذا الوباء. ومن المبكر البت في أسباب ظهور هذا الوباء وهل هو جزء من حرب جرثومية بايولوجية خفية استخدمتها قوات التحالف لإضعاف

الصمود العراقي ودحره ؟ أم انه مـن جـراء الآثـار السـلبية للحـرب, وبسـبب كـثرة الجثث المتفسخة لقتلى الحرب من الطرفين. وقد انتشرت أخبار هذا الوباء في جنوب العراق ويعد مرض اللشمانيا من الأمراض الخطيرة التي تنقلها حشرات صغيرة أصغر من البعوض, وهو يصيب الكبد والطحال ويؤدي إلى الوفـاة لمعظـم الإصـابات وهـو مرض صعب المعالجة، وقد ذكرت إذاعة الـ BBC أن هنـاك أكـثر مـن 700 إصـابة في الناصرية ومثلها في الزبير والبصرة, وهي المناطق التي حـدثت المعـارك العنيفـة بـين قوات التحالف والعراق خلال الأسبوع الأول للحرب، ولا نستطيع الـتكهن الآن عـن أسباب انتشار المرض، فقد يكون بسبب تفسـخ الجثـث الكثـيرة أو بسـبب الأسـلحة المستخدمة وقد يكون المرض نقل إلى العراق بشـكل متعمـد؟ وسيكشـف المسـتقبل الكثير عن هذه الأسرار, وربما يجيب عن هذه الأسئلة وغيرهـا, وفي مقـدمتها عمليـة تدمير العـراق المنظمـة التـي تمـت خـلال حـرب الحريـة بقيـادة الولايـات المتحـدة الأمريكية..!.

7- قنابل منوعة أخرى كانت ترمى مع المنشورات على المدن العراقية من الطـائرات على شكل دمى وأقلام ولعب أطفال لتصيب المدنيين وترهب وتقتل الأطفال.

ترويع الحزب والجيش وانهياره

لقد كان آخر بيان رسمي عسكري صدر عن الإعلام العراقي مساء يوم الاثنين 4/7, وكان هذا البيان مقتضباً وإجمالياً, كما إنه لم يتحدث عن خسائر كبيرة في قوات العدو كما هي العادة في البيانات السابقة وأظنه كان يحمل البيان رقم 20. وكان ذلك قد أثار الريبة والاستغراب في أوساط المتابعين في بغداد، ثم علمت في اليوم التالي من أحد الضباط العراقيين أن أمراً عسكرياً موقعاً من رئاسة الأركان جاء إلى آمري الوحدات معنونا باسم آمر الوحدة يأمرهم بالتوقف عن القتال ونزع السلاح وإنزال العلم في الوحدات ومواقع القتال في بغداد والعودة إلى البيوت، وأمراً آخر إلى الدفاعات الجوية بالتوقف عن ضرب الأهداف الجوية سواء بالمدفعية أو الصواريخ أو الأسلحة الأخرى، وبدت أصوات المدفعية والصواريخ المعادية قريبة منا في الأعظمية، حيث كانت في المطار وأبي غريب ثم اقتربت إلى حي العدل والجامعة والحرية وساحة عدن في الكاظمية وكانت مدفعية العدو تمشط هذه المناطق تباعا واستمر هذا التمشيط من أبي غريب حتى ساحة عدن والعطيفية 36 ساعة فقط, مشيرا إلى سرعة تقدم وزحف قوات التحالف لاحتلال بغداد, ومدللا على عدم وجود مقاومة للقوات العراقية الضخمة المحيطة ببغداد, وان هناك أمرا ما قد حدث وشل حركة الجيش والحرس والحزب بعد يوم الأحد 4/6,

وكان ذلك مثار ريبة واستغراب الناس في بغداد بعد هذا التدهور السريع الذي حصل في الموقف العسكري في بغداد كما هو في باقي المحافظات, وبدأ الناس يتحدثون عن الخيانة والصفقة التي تحدث عنها الإعلام في الإذاعات الأجنبية والعربية، وقد حدثني أحد شهود العيان الذي جرح في معارك بغداد/ الكرخ أنه علم من الجنود المقاتلين أن أوامر صدرت لهم من رئاسة الأركان بنقلهم إلى جلولاء وخانقين خارج بغداد وقد كانت المعارك على أشدها في أبي غريب والعامرية والمنصور وحي العدل والقصر الجمهوري, وكان ذلك يوم الاثنين 7/ 4، كما صدرت أوامر أخرى بفتح الأجازات للجنود, وكانت مثل هذه الأوامر العسكرية الصادرة من جهات عسكرية عليا وفي وقت حرج وعصيب وموجهة إلى آمري الوحدات ومدراء التشكيلات بالاسم, مما يدل على تورط العديد من المتخاذلين والخونة وعملاء الأجنبي بخطة تسليم بغداد إلى قوات التحالف بدون قتال. وقد حدث خلاف حاد وصراع بين رموز النظام وقادة الجيش أدى إلى إعدام بعض القادة في الحرس والجيش ويذكر أحد الثقاة أن هناك العديد من الضباط الكبار وبعض قادة الجيش والحرس قد أعدموا من قبل صدام ونجله قصي. وتقول الروايات أن صفقة حدثت بين قيادة الجيش والحرس وبين قوات التحالف بتسليم بغداد دون قتال، ورواية أخرى تتحدث عن صفقة بين صدام والأمريكان بواسطة السفير الروسي، وقد أثبتت الأحداث وبقاء صدام بعد انهيار حزبه ونظامه

زيف وسقوط الرواية الثانية وذلك لا يمنع أن هناك مفاوضات قد حدثت في الأيام العشرة الأولى للحرب بين صدام وروسيا عبر سفيرها في بغداد، وقد رصد الأمريكان ذلك وقاموا بقصف موكب السفير الروسي عند خروجه من بغداد في طريق الرمادي في الأسبوع الثاني للحرب، حيث كانوا يظنون أن صدام كان مع الموكب الروسي وكانت تلك الحادثة والعمل الإجرامي الذي كان يفتقر إلى أي نوع من الدبلوماسية واحترام الرعايا الأجانب والشخصيات الدبلوماسية والسفراء, حيث قتل عدد من الدبلوماسيين الروس وجرح السفير، وفي حينها كنت مشغولاً منذ أسبوع في محاولة تثبيت الناس وتقوية المعنويات وفي إسناد الجبهة الداخلة المتصدعة، حيث قمنا بأعمال الحث على التبرع بالدم، ونذكر الناس بأهمية هذا العمل مع تزايد أعداد الجرحى, حيث ذهبت في البداية مع عائلتي للتبرع في مصرف الدم في باب المعظم وسط بغداد, ثم تلتها جمع المتبرعين ونقلهم إلى المصرف, وقد بلغ عددهم أكثر من 150 متبرعاً في الأعظمية فقط خلال الأسبوع الثالث للحرب, فضلاً عن مئات المتبرعين الذين تبرعوا في جامع أبي حنيفة وبعض جوامع بغداد الأخرى خلال الأسبوعين السابقين, والتي كانت بالتنسيق بين وزارة الصحة وهذه الجوامع, ولقد تعاون معنا بعض الشباب وأصحاب السيارات لنقل المتبرعين وتوفير شيء من الأكل والشرب لهم, بعد أن توقف عمل لجان التبرع بالدم الرسمية بسبب

الظروف المتداعية وفقدان النظام وصعوبة المواصلات في الأيام الأخيرة التي سبقت سقوط الدولة, ولقد لمسنا همة عالية وروحاً متعاونة لهؤلاء الشباب المتبرعين بغض النظر عن مشاربهم وتوجهاتهم وانتماءآتهم بل كان منهم العابث والسكير والصغير والكبير فضلا عن أصحاب الهمم والمشهود لهم بحب البلد والتضحية في سبيل الله وخدمة الناس وقد ذكرني ذلك الموقف لبعض الناس الذين كنا نظنهم لا يستجيبون لأعمال الخير هذه بحديث النبي ﷺ والذي يقول الناس معادن, خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وقد فرحنا لهذا العمل الجماعي البسيط والذي لاقى هذا القبول والارتياح والاستعداد الكبير للتبرع من قبل الشباب, فالحس الوطني كان عميقاً لدى الجميع، كما قمنا بإسناد مستشفى النعمان ببعض المتطوعين في تمريض الجرحى، ثم في يوم الثلاثاء, دعونا الناس في الجامع للقيام بالخفارات لحراسة المنطقة من أي غريب بسبب الاضطراب الأمني الذي كان يتعاظم مع توالي الساعات. وفي يومي الثلاثاء والأربعاء بدأنا نسمع أخبار الدولة من إذاعة الـ FM محدودة البث, لكنها لم تكن تبث غير أناشيد وطنية قديمة وليست حديثة كما تعودنا أن نسمع في الأسبوعين الأولين للحرب، وكان هناك مذيع واحد وكان صوته غير معروف لدى المستمعين، وكان يذيع كل ساعتين بعض الأخبار المحلية التي لا تسمن ولا تغني من جوع ولا تدل على اتصاله بخلفية إعلامية واسعة لدولة مثل العراق،

وإنما تشير إلى أنه كان جالساً في منزل أو مكان صغير ويبث كأي إذاعة شخصية, وفي ظهر الأربعاء جاءنا أحد الأشخاص بعد أداء الصلاة وهو يقول أن الرئيس صدام في جامع الإمام الأعظم أبي حنيفة ومن يريد أن يراه يركب في سيارتي (وكانت سيارة جمسي كبيرة) وركب معه عدد من أهالي المنطقة في السفينة (محلة في الأعظمية) ولكني لم أرغب أن أذهب إلى هناك لأني كنت قد تجولت مع الخفراء الآخرين حتى ساعة متأخرة من ليلة الثلاثاء وكنت متعباً، وبعد العصر سألت بعض الذين ذهبوا إلى الجامع لرؤية صدام هل وجدته، فقال لم نلحق به فقد ترك المكان قبل وصولنا بربع ساعة، ثم رأيت أحد أصحابي وكان قد رآه وصافحه وقال لي لقد عانقته وقال أنتم أهل الأعظمية أبطال. ولم يكن هذا الرجل من محبي صدام أو المهتمين بالسياسة, ولكن صدام في أيام الحرب هذه كان قد فرض بعض الهيبة والعاطفة الفطرية تجاهه كرمز للعراق ولبقاء النظام والقانون في البلد, رغم استبداده وظلمه لكثير من الناس، ولكن بعض الناس حينما كانوا يشعرون إن البديل هو الاحتلال والغزو الأجنبي يميلون إليه فطرياً، وهذا السبب نفسه هو الذي دفع العشائر وأهل المدن في الجنوب والوسط والغرب والشمال إلى التصدي للغزو الغاشم، فالعراقي عزيز النفس أبي لا يرضى المهانة والاحتلال بأي صورة تكون، فظلم صدام قد يموت معه حين يموت أما ظلم الاحتلال وذله فيبقى دهراً طويلا, وقد حدثني شاهد

عيان آخر أنه رأى صدام في ذلك اليوم مع وزير دفاعه أو رئيس أركانه وولده قصي على جسر الأئمة أمام الجامع, وقد عثرت رجله وهو يحاول الصعود إلى السيارة وكان قصي يسنده وهو في غاية الجهد والتعب, وقد بثت قناة الجزيرة لقطات من زيارة صدام للأعظمية ظهر الأربعاء 9/ 4 وذلك بعد أسبوعين من تلك الزيارة اليتيمة، وقد سألته امرأة عن سبب تلك النهاية وهذا الذي حصل فأجابها قائلاً: لقد خانني أقرب الناس ألي !.. وقد كرر ذلك في خطابه الأخير, ولكنه لم يفطن أن الناس لا تضحي وتقاتل نيابةً عن أحد سوى الدين والوطن. ثم سمعنا إنه شارك بنفسه في معارك المنصور والأعظمية والعطيفية مع الفدائيين, وكان يحمل القاذفة والسلاح الخفيف بنفسه، كما إنه دافع قبل أيام عن ساحة النسور واليرموك بنفسه أيضاً, وهذا الأمر رواه الكثير في معظم مناطق بغداد. ونقول للتاريخ, إن صدام كان بحق رجلاً شجاعاً مستبداً خذله أتباعه وحزبه، كما أن عناده جعله لا يثق بأحد ولا يعطي السلاح إلا لمن يواليه ويتبعه, وتلك هي الثغرة التي أفقدته جوهر القضية العادلة, ومنعت المخلصين والمؤمنين أن يقاتلوا معه للدفاع عن البلد، فاضطروا أن يقوموا بدور هامشي خدمي, ويدعون الله أن يثبت المجاهدين وللبلد بالنصر والصبر والمرابطة، وتلك حالة مع أهميتها غير كافية لإحراز النصر، فان المنتفعين هم أول من يفر من الزحف لأن الحياة عندهم غالية بعدما خبروها وعاشوا نعيمها وترفها، وهكذا

تبخر الحزب ولم يقاتل في ساعة العسرة والحاجة إلى القتال والجهاد. وقد أعترف صدام بهزيمة حزبه وأعوانه في آخر خطاب بثه عبر إذاعته الشخصية الباهتة على الـ FM ليلة الأربعاء في آخر لحظات حكمه المنهار، فقد خطب في الساعة العاشرة في ليل ذلك اليوم الكئيب 4/9 وقال: لقد وعدتموني وحلفتم الأيمان الغليظة أن تقاتلوا العدو وحتى النهاية، ولكنكم والله لم تقاتلوا كما وعدتم, لم يقاتل غير الفدائيين والقيادة (ويقصد نفسه) ثم دعا إلى الصبر وتدارك الضعف الذي حصل والعودة إلى القتال، وإن الأيام القادمة ستشهد عملاً متواصلاً لطرد الغزاة من بغداد، ثم توقف يبكي أثناء الخطاب ثلاث مرات، ثم وعد بالاستمرار وإنه ثابت ومستمر بالجهاد حتى آخر قطرة من دمه، وختم كلامه بالتكبير وهو يردد, الله أكبر وليخسأ المجرمون. ثم ختمت الإذاعة البائسة بثها بآخر سلام جمهوري في عهد صدام ليتوقف البث إلى الأبد. لقد ذكرني بكاء صدام هذا في آخر كلمة له وهو يودع فيها بغداد قبيل سقوطها, ببكاء عبد الله الصغير آخر ملوك غرناطة وهو يرحل عنها أثناء سقوطها بأيدي الأسبان وكانت أمه الأميرة عائشة واقفة بقربه فقالت له: ابك يا بني مثل النساء, ملكاً لم تحافظوا عليه مثل الرجال[*]. ورغم أن

---

[*] وقد روي الخبر شعراً كما يلي:

ابك مثل النساء ملكاً عظيماً   لم تحافظ عليه مثل الرجال

صدام قد اثبت انه رجل شجاع في تحديه لأمريكا والصهيونية إلا أن حزبه وأتباعه لم يقاتلوا كالرجال الشجعان, إنما الذي قاتل هو الشعب الذي حرمه صدام أبسط حقوقه، ومع ذلك استطاع أن يقهر الغطرسة والطغيان الأمريكي ويصمد أمام تلك القوة ثلاثة أسابيع بأيامها ولياليها ويلقن قوات التحالف دروساً ستظهر آثارها وثمارها على العالم مهما حاولوا إخفائها وتزييفها بالماكنة الإعلامية المتطورة التي يمتلكونها.

معركة الأعظمية

في يوم الخميس 10/ 4 شهدت الأعظمية معارك شرسة وقصفاً شديداً منذ الفجر ولمدة ست ساعات، حيث نزلت الدبابات والمدرعات الأمريكية إلى شوارع الأعظمية وعبرت من الكرخ من جسر 14 رمضان القريب من المقبرة الملكية وكان عددها أكثر من ثلاثين دبابة ومدرعة، وقد واجهها وتصدى لها الفدائيون العرب والعراقيون وكبدوها خسائر فادحة بلغت سبع دبابات وأكثر من أربعين جنديا أمريكيا بين قتيل وجريح, وقد فتكت قوات التحالف بالمباني والمنازل والمتاجر والجوامع ودمرت أكثر من 50 سيارة مدنية، كما وقع أكثر من 100 شهيد وجريح من الفدائيين والمدنيين من بينهم طفل وطفلة استشهدا ولم يتجاوز عمر كل منهما 12 سنة، تم دفن معظمهم في الحديقة الخلفية لجامع الإمام أبي حنيفة. ويذكر العديد من أهالي الأعظمية أن صدام شوهد فجر الخميس في أحد مساجد الأعظمية الصغيرة, وهي آخر ليلة لصدام كان قد بات فيها في منطقة الأعظمية، وتذكُر الروايات أنه كان متخذاً أحد البيوت الصغيرة التي يملكها شخص مقرب من نجله عدي وكراً له, وتقول روايات أخرى أنه كان يبيت في مدرسة الأعظمية في شارع المقبرة الملكية, وأياً كان الأمر، فإن صدام لم يظهر ثانية في الأعظمية بعد

نهار الخميس الذي شهد القصف الشديد والمعارك الطاحنة بين قوات التحالف والفدائيين.

وقد أعلنت قوات التحالف إن نظام صدام قد سقط يوم الأربعاء 4/9 بعد أن تم لها السيطرة على القصر الجمهوري ومعظم مواقع القيادة المحصنة وسقوط جانب الكرخ بأكمله, ومحاصرة منطقة الرصافة, وكانت الأعظمية آخر مناطق بغداد سقوطاً حيث سقطت يوم الخميس 4/10 بعد معركة الأعظمية التي كانت آخر المعارك في بغداد.

لقد انتهى هذا الحكم الفردي الذي لم يكن يؤمن بالتعايش مع الأفكار الأخرى أو الآراء المخالفة الأخرى أو المؤسسات الأخرى إلا أن تكون سائرة في ركابه تنفذ رغباته وميوله وتخدم منهجيته القاصرة التي أصبحت مع الزمن والتطور الفكري والحضاري من المبادئ والأفكار المتخلفة التي يستحيل أن تعيش في ميادين الواقع المعاصر الذي يفرض على الدول والشعوب والأمم التداخل والترابط والتمازج لمواجهة العواصف الكبرى التي ولدتها العولمة والحداثة والثورة المعلوماتية وثورة المواصلات والاتصالات حتى عصفت بأركان الدول كالسيادة والاستقلال والاقتصاد وغيرها من المفاهيم الضرورية لإقامة الدولة الحديثة.

لقد كان عصر صدام حقا عصراً فاقد الحيوية لا بد أن يزول, شأنه شأن كل النظم الدكتاتورية التي تفتقر إلى المنظار الواقعي. ولكن تلك النهاية السريعة المفاجئة التي حدثت تحت طرقات الغزو

الأجنبي ومفهوم الاستعمار الجديد، وذلك الخذلان الذي لمسه صدام في نهاية ذلك التصدي البطولي لشعب العراق، يجعل في طعم هذه النهاية والهزيمة مرارة في فم كل عربي ومسلم, بل في فم كل داعية للسلام والتعددية التي تحاربها القوة الغاشمة في أمريكا, والتي تريد فرض العولمة والأمركة مكانها، وذلك هو الذي يجعلنا نفرق بين سقوط صدام الحتمي بسبب فقدان نظامه لأهلية الاستمرار والحياة, وبين ضرورة الجهاد والعمل الدؤوب لطرد المحتل الذي جعل شعاره الزائف إسقاط صدام ومنح الحرية للشعب المغلوب على أمره لتغطية أطماعه الاستعمارية.إن نظام صدام الذي كان غارقا في اللاشرعية والظلم البعيد كل البعد عن مفهوم العدل والعدالة كما سنوضحه لاحقا, لم يكن يحسب أنه سيزاح من السلطة بنفس الطريقة التي كان يحكم الناس بها, طريقة القوة واللاشرعية والعصا الغليظة التي بدأت تلوح بها أمريكا ضد خصومها, وربما أمريكا نفسها التي جاءت بصدام ودعمت نظامه خلال العقدين الماضيين, لم تفطن أنها أصبحت تلميذة له ولمدرسته في ميدان الظلم واللاشرعية واللادستورية وهي تمارسها من خلال احتلال العراق باسم الديمقراطية والحرية, فيا لها من مفارقة وحكمة خفية يصفها بدقة الحديث القدسي الذي يقول: الظالم سيفي أقتص به وأقتص منه. إن مفهوم اللاشرعية الذي طبقه صدام على العراقيين خلال سنين حكمه, فسجن وقتل ومنع الحريات بدون وجه حق, هو الذي جاء

بأمريكا إلى هنا بدون أي غطاء شرعي وقانوني, وهو الذي سيطيح بأمريكا وبرنامجها الاستعماري وطغيانها وتجاهلها للشرعية الدولية والقوانين والأنظمة, كما إنه سيطيح في نفس الوقت بكل النظم التي سمحت لشريعة الغاب والغطرسة والطغيان أن يكون لها دور سياسي فاعل ومؤثر في الأحداث الدولية.

لقد استمرت المواجهات والمعارك في الأعظمية حتى مساء اليوم التالي الجمعة 4/11 حيث قام الجيش الأمريكي بقصف جامع وساحة الإمام أبي حنيفة والعمارات المحيطة بها, ولم تسلم من أعمال القصف الوحشية حتى مقبرة أبي حنيفة التي يرقد فيها أموات أهالي الأعظمية وغيرهم, حيث سقطت عدة صواريخ على المقبرة, ودمرت قبور الموتى وتناثرت القبور في وسط شارع المقبرة وعلى البيوت المقابلة للشارع، وقد حدثني شاهد عيان هو الأخ أبو محمد أنه حدثت معركة عنيفة بين الفدائيين وقوات التحالف قرب مقبرة أبي حنيفة في الساعة الواحدة ليلة الخميس أستشهد فيها خمسة فدائيين، وقد بقيت جثثهم في الحديقة المجاورة للمقبرة وقرب جامع حسن بيك إلى عصر اليوم التالي، ثم تم نقلها ودفنهم مع بقية الشهداء في الحديقة الخلفية لجامع الإمام أبي حنيفة, وكانت هذه المعركة تدور قرب منزله وقد أتيحت له متابعة وقائع هذه المعركة من منزله, وأصيبت إحدى الدبابات أمام منزله وانفصلت بعض أجزائها وكسرت الباب ودخلت إلى داخل البيت, وقد رأيتُ تلك

القطعة من (سربس) الدبابة وكانت تزن أكثر من خمسة كيلوغرامات, واستمرت المعارك بين الفدائيين وقوات التحالف حتى مساء الجمعة(*), ومع ذلك لم يتوقف أهالي الأعظمية في مراسيم تشييع ودفن الشهداء يومي الجمعة والسبت. ولقد شاهدت بنفسي يوم الجمعة 11/ 4 آثار معركة الأعظمية وذلك القصف والتدمير البربري الذي أصاب معظم مرافق الحياة والأجهزة الخدمية والمدنية والجوامع والبيوت والمحلات والسيارات ولم تسلم منه حتى الطيور والحيوانات والحشرات، فقد حدثني أحد شهود العيان الذي كان يسكن في شارع عشرين خلف بدالة الأعظمية أنه شاهد الحشرات والطيور تموت من جرّاء الدخان الكثيف الذي تصاعد من ركام بناية البدالة عندما قصفت للمرة الرابعة, وإن البيت قد امتلأ بالحشرات الميتة وكأنها ماتت بسبب غازات كيمياوية سامة كان تأثيرها المباشر على الحشرات قاتلاً, ولا نعلم ما هو تأثيرها البطيء على البشر وتلك ملاحظة بسيطة لاستخدام أسلحة مجهولة ومدمرة وما خفي كان

(*) روى لي الشيخ وليد الأعظمي أن جامع أبي حنيفة ومأذنته وساعته الأثرية قد قصفت عصر الخميس 4/10 بعد توقف المعارك، علماً بأن المعركة بين قوات التحالف والفدائيين قد انتهت ظهر الخميس، غير أن اشتباكات متفرقة وقصف جوي قد تجدد في ساعات متأخرة من ليلة الخميس وفي عصر يوم الجمعة 4/11، حيث دمّر أحد الصواريخ عدة منازل في شارع الچرداغ وقرب محل الكبيسي وعلى جانبي الشارع.

أعظم، وقد شاهدت بنفسي بقية بنايات البدالات المدمّرة بالكامل أو معظمها حيث تم تدمير بدالة باب المعظم بالكامل ورأيت بدالتي المأمون والسنك المسؤولة عن نظام الاتصالات الدولية والمحلية وبين محافظات القطر، حيث قطعت وشلت الحركة الرئيسية لشبكة الاتصالات في بغداد والعراق بأكمله بعد القصف المركز والشديد يوم الأحد 6/ 4.

لقد بدأ هجوم قوات التحالف على الأعظمية فجر الخميس الساعة الخامسة بقصف جوي شديد ودخول رتل من الدبابات والمدرعات من جسر 14 رمضان مع تحليق طائرات التجسس بدون طيار في سماء الأعظمية وكنا نظنها زوارق نهرية للعبور إلينا من الكاظمية، ثم عرفها الناس واعتادوا صوتها وأزيزها طوال يومي الخميس والجمعة، وكانت طائرات الأباشي تجوب سماء الأعظمية وتضرب كل جسم متحرك وترد على أي إطلاق نار، وكانت تسند أرتال الدبابات والمدرعات وقد قصفت ودمّرت مخزناً للذخيرة وموقعاً للقيادة في منطقة الحارة قرب جامع الشابندر، وقد طال القصف بالمدفع الرشاش لطائرات الأباشي معظم المنازل من ضمنها سطح منزلي. وحدثت مطاردات ومعارك عديدة بين الفدائيين وقوة الدروع، وقد علمت فيما بعد أن هناك ثلاثة أرتال دخلت الأعظمية رتل من الكاظمية/ العطيفية عبر جسر 14 رمضان, ثم مرت على شارع الكورنيش بمحاذاة مستشفى النعمان ثم منطقة (المسناية)

فسوق حي السفينة ثم توزعت في أزقة السفينة وحدثت معركة كبيرة في أزقة الحي الضيقة. أما الرتل الثاني فجاء من كلية بغداد وطريق الصليخ/ سبع أبكار ودخل شارع عمر بن عبد العزيز ووصل إلى ساحة عنتر ورأس الحواش وسط الأعظمية ليلتقي بالرتل الأول بعد أن قام بتمشيط شارع عمر وساحة عنتر وسوق الأعظمية الكبير, وجاء الرتل الثالث من القاهرة باتجاه راغبة خاتون ثم شارع الضباط ومكتبة الصباح ثم رأس الحواش، لتلتقي الأرتال الثلاثة في ساحة الإمام الأعظم، وقد حدثت معركة كبرى مساء الخميس في رأس الحواش وساحة الإمام الأعظم دمرت فيها عشرات المباني والمحلات التجارية والمنازل وتم تدمير أكثر من خمس دبابات بين ساحة عنتر وجسر الأئمة، وقد رأيت إحداها يوم الجمعة صباحاً قرب الجسر، كما رأيت ناقلة جنود مدرعة معطوبة في داخل محلة الحارّة قرب جامع الشابندر في حي السفينة، وقد استطاع الغزاة إخلاء معظم دباباتهم ومدرعاتهم المحترقة وقتلاهم، وقد سقط أكثر من 60 شهيداً من الفدائيين والمدنيين وأكثر من40 جريحاً, كما استشهد ثلاثة من الشباب في السفينة قرب بيتي هم عثمان ومنذر وشاكر، وكان شاكر قد استشهد وهو ينقل أحد الجرحى إلى مستشفى النعمان بسيارته الخاصة (نوع كرونا) حيث رأيت السيارة التي تعرضت للرصاص من طائرة أباشي. وقد هاجمت قوات التحالف جامع الإمام أبي حنيفة وداهمته واعتقلت 14 شخصاً مدنياً كانوا من

المصلين في الجامع على رأسهم الشيخ واثق العبيدي نائب الإمام والخطيب, وقد تم نقلهم كأسرى حرب إلى الناصرية وتم الإفراج عن الشيخ واثق وستة أشخاص ممن كانوا معه بعد أسبوع من اعتقالهم. وفي صباح يوم الجمعة قمنا بتشييع الشهداء ودفنهم مع أقرانهم في الحديقة الخلفية لجامع الإمام الأعظم. وبعد التشييع جاء عدد من الصحفيين الأجانب، منهم مجموعة من الصحفيين الإيطاليين قرب جامع الإمام أبي حنيفة، وتوافق وجودي في المكان فقمت بشرح مفصل للمعركة والقصف الوحشي للأماكن المدنية, وتم تصوير مأذنة أبي حنيفة التي قصفت بعنف مما أدى إلى تدمير الساعة الأثرية فيها -والتي نصبت على المأذنة منذ سبعين سنة- كما أدى القصف إلى حدوث ثقب كبير في المأذنة, وقد ضربت أيضا إحدى قباب الجامع, وكذلك قبة منتدى الإمام أبي حنيفة في الساحة المقابلة للجامع, مما ولد رد فعل عنيف وحزين لدى أهالي الأعظمية الذين يقدسون الجامع ويعتبرونه رمزا لهم ولانتمائهم الديني والمذهبي، وقد بكى الكثير من الرجال والنساء على مظهر الجامع والساحة والسوق والحي كله بعد القصف الوحشي والتدمير الكبير الذي أصاب مدينة الأعظمية العريقة والجميلة والتي يطلق عليها بعض المحبين مدينة المولد النبوي الشريف ومدينة الإمام الأعظم، علماً بأن هذه المنطقة التي حدث فيها القتال في حي السفينة منطقة خالية من أية منشآت عسكرية أو صناعية، وهي من المناطق القديمة في بغداد ويسكنها

الكثير من العوائل الفقيرة والمتوسطة في بغداد. وقد قمت بإيصال الصحفيين الأجانب إلى الحديقة الخلفية للجامع لرؤية وتصوير مقابر الشهداء الذين كانوا يصلون تباعاً, ولا أدري هل تم نشر هذه الحقائق أم إن الإعلام الأمريكي وإرهابه حال دون نقل هذه الحقائق إلى العالم.

خطة الصدمة والترويع البديلة

لقد بات واضحاً أن خطة الصدمة والترويع التي تحدّث عنها بوش ووزيره رامسفيلد قد أجهضت في الأسبوع الأول من الحرب تحت وطأة صمود الشعب العراقي الباسل بكل فئاته ومذاهبه ومشاربه, كما إن الفشل الأمريكي قد بدا واضحا في شمال العراق كما هو في جنوبه، وقد كانت حسابات بوش في الحرب الخاطفة واستخدام مبدأ الصدمة والترويع قد أصبحت هباءً منثوراً, فلم يستطع بوش أن يكسب شيعة العراق أو يقنعهم بصفقة القضاء على صدام مقابل أن يستقبلوه بالورود, ولم يستطع إقناع الأكراد ولا الأتراك في الشمال بالتحالف للقضاء على صدام مقابل مكاسب اقتصادية وسياسية، فقد كان لقانون التدافع الرباني أثره في فشل هذه الخطة أيضاً.. حيث يقول تعالى: ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض**﴾.

وهكذا استمر الفشل الأمريكي طوال أيام الحرب التي ذاق مرارتها بوش وبلير وجنودهما في صحراء العراق وعلى مشارف المدن

العراقية على أيدي أناس أشداء، فمال الغزاة إلى المكر والخديعة والأساليب المحرمة والحرب النفسية الإعلامية لكسب المعركة، وهكذا حاولوا تطبيق مبدأ الصدمة والترويع بشكله القبيح بعدما خسروا المعركة التقليدية وأهينوا بين أحضان عملائهم والدائرين في فلكهم من الدول المتحالفة معهم، ولا يضر الشجاع أن يُؤخذ غيلة وغدراً بعدما أذاق عدوه مرّ الهزيمة، حين رأى العالم صمود الشعب أمام أعتى قوتين في العالم, ذلك الصمود الذي يعرف قيمته المؤمنون وينكره الذين ختم الله على قلوبهم من المنافقين والنفعيين، وسيكون ذلك الصمود مفتاحاً لخلاص العالم من هذا النظام الدولي الجديد الذي يريد أن يأكل العالم على طريقة القضم بدءً بالعراق وانتهاءً بأوربا وكل الشرفاء في العالم دولاً وشعوباً وأفراداً, وهنا تأتي رسالة العراق وشعب العراق للوقوف بوجه النموذج الأمريكي الاستعماري، الذي تظاهر بالشجاعة والقدرة على تحقيق أهدافه العدوانية، وحينها ستتضافر قوى الخير للخلاص من هذا النظام المتغطرس الذي يضمر الشر لكل أمم الأرض, ولا يريد الحياة إلا لمنهجه ونظامه الأوحد, أو تحجيمه وردعه - على الأقل- لأنه يحمل روح التكبر والاستعباد العالمي وروح الشيطان الذي يبغي الفساد في الأرض.

أما في العراق، فلا أقل من أن المقاومة لهذا الاحتلال البغيض مستمرة ولا هوادة فيها وبكافة الوسائل والسبل بدءً بالكلمة المخلصة التي هي أقوى من السيف والصاروخ, وإن هذا الشعب الذي وقف

وقفـة التحـدي والصـمود في وجـه هـذا المـد الصـهيوني الشريـر رغـم عـدم التكـافؤ في الإمكانات والقوى لقادر على أن يلقن الغزاة الهزائم الماحقـة, وأن يحاربـه بكـل السـبل من أجل السيادة والحرية والسلام حتى يرجع عن غيـه ويرحـل بقواتـه الغازيـة رحـيلاً أبدياً غير مأسوف عليه.

لقد كان لقرار الأمريكان في تصعيد الموقف العسكري واستخدام الأسلحة المحرمة دوليـاً كالقنابل النووية والصوتية والاهتزازيـة في عـدة منـاطق حـول بغـداد بهـدف احتلالهـا وإجهاض روح التصدي والمقاومة بأي ثمن، مـا يشـبهه في الحـرب الأمريكيـة اليابانيـة في نهايـة الحـرب العالميـة الثانيـة حـين اسـتخدمت أمريكـا القنبلـة الذريـة في هيروشـيما وناكـازاكي, فالأمريكـان بطـبعهم الغريـزي لا يتورعـون عـن ارتكـاب المحرمـات وإبـادة الشعوب كما حصل أيضاً مع الهنود الحمر سكان أمريكـا الأصـليين, لـذلك كانـت خطـة الصدمة والترويع البديلة بعـد فشـل الخطـة التقليديـة في الأسـبوع الأول. وكـان لـذلك القرار آثـار جسـيمة غـيّرت مجـرى الأحـداث لصـاح الغـزاة، فمنـذ الخمـيس 3/ 4 بـدأ المشروع الإجرامـي بالتنفيـذ المتتـالي لاغتيـال العـراق وإنهـاء نظامـه وبنيتـه التحتيـة, واستمر ذلك حتى يوم الخميس 10/ 4 وهو اليوم الذي حدثت فيـه معركـة الأعظميـة، ولإلقاء الضوء على أثر خطة الصدمة والترويع والحرب النفسـية الإعلاميـة التـي قامـت بهـا أمريكـا بـإعلام منفـرد لا يسـمح بـأي عـرض إعلامــي مضـاد أو محايـد بعـد

قصف مراكز الإعلام الأخرى في بغداد لابد من استحضار حالة الناس في بغداد في ذلك الظرف. لقد ساد الهلع سكان بغداد المدنيين والعسكريين، فكان القليل منهم من قرر الصبر والمرابطة رغم مؤشرات الموت الجماعي المؤكد لمن يفكر بالبقاء، والأكثرية الباقية صدمت وضعفت من جرّاء ذلك الترويع الذي بات الناس يتكلمون به علانية لا همساً, فقرروا ترك العاصمة والهرب بأطفالهم وعوائلهم عبر طريق بعقوبة وطريق الموصل وازدحمت فجأة محطات تعبئة البنزين, وخرجت آلاف السيارات بأهلها مع أحمال المؤن التي يتمكن أصحابها من حملها، ولقد حاول البعض إيقاف هذا الزحف الرهيب للخروج من بغداد دون جدوى، فقد خرج أيام الأحد والاثنين والثلاثاء أكثر من مليون شخص, وقد روى لي أحد شهود العيان إن طريق بعقوبة وبعد بعقوبة طريق بلدروز والمقدادية قد اختنق بعشرات الآلاف من السيارات حتى إنه عد عدد صفوف السيارات المتجهة شرقا صوب بلدروز-مندلي إلى أكثر من 11 صفاً, ولم يكن هناك مجال حتى في الطريق الترابي للعودة باتجاه بغداد، حيث كان يروم العودة, وكان ذلك يوم الجمعة 4/ 4 وعلى القاريء تصور ما حصل في الأيام اللاحقة التي كانت أشد وطئاً واضطرابا من يوم الجمعة. لقد نجح الأمريكان -أخيراً- في خطة الترويع والهلع ليس بشجاعتهم وقوتهم العسكرية التقليدية ولكن بأسلحة التدمير الشامل المحرمة, وبالحرب الإعلامية أو لنقل بالإرهاب الإعلامي الشيطاني

الذي لا يسمح إلا للمعلومة التي تخدم المخطط الأمريكي, وكذلك بتسخير أذنـابهم من الجواسيس والعملاء الذين دخلوا بغداد من الشمال والجنوب والغرب، فكـانوا أدلاء عـلى مواقـع الحـرس والفـدائيين والمواقـع الحساسـة وإرسـال الإشـارات والإحداثيات بواسطة أجهـزة إرسـال إلكترونيـة خاصـة لتسـهيل قصـفها وتـدميرها وهكذا كان. لقد شمل الترويع ضباط الحـرس وجنـوده والحـزب الحـاكم فحـدثت خيانات وتخاذل واستسلام جماعي وانهيار عام، فصدرت أوامر من بعض الخونة في القيادات العليا بوضع السلاح والعودة إلى المنازل وترك بغداد فريسـة أمـام الغـزو الغاشم، وهذا ما تحدث به صدام في آخر كلمة له في ليلة الأربعاء 9/ 4 وهـو يـوم سقوط النظام واغتيال الدولة العراقية, ولعـلي أسـتطيع أن أؤكـد أنـه لا لـوم عـلى المروّعين الفارين من بغداد لهول الصدمة والحرب النفسية التي كانت فوق طاقـة البشر, والخيانات والاختراقات التي كانـت تضـع النـار في الهشـيم، كـما إن موقـف القلة من المرابطين الذين سلّموا أمرهم لـلـه سبحانه الـذي يقـول في قرآنـه: ﴿ **يا أيها الذين آمنـوا اصبروا وصـابروا ورابطـوا واتقـوا الـلـه لعلكـم تفلحـون**﴾ هـو الموقف البطولي الذي يصـطف مـع الشـعب الـذي صـمد ووقـف بوجـه الغـزو في جنوب العراق وغربه وشماله عشرين يوماً يقارع الأعداء ويلقـنهم أقسى الـدروس, لاسـيما العشـائر والجـيش وأهـل المـدن والفـدائيون، فقـد كانـت بحـق ملحمـة

عراقية خالدة، إن هذا الشعب العظيم بعربه وأكراده وشيعته وسنته قد تحدى الطغيان العالمي وتصدى لأعظم هجمة شرسة بربرية شهدها التاريخ على شعب مسالم عريق كانت تحكمه وتقيده قوة مستبدة، لم يكن ينتظر من أحد أن ينقذه سوى الله سبحانه. ولكنه فوجئ بتآمر اليهود والعرب عليه وتحالفهم مع الغزاة لتدميره وتشويه صورته والقضاء على حضارته وتراثه العريق. وسيكوى هؤلاء الظالمون بنفس النار التي أحرقوا بها هذا البلد العظيم.

إن حالة الوهن والتخاذل وموقف الذلة والمسكنة الذي وقفه البعض إزاء الحرب والغزو الأجنبي كلفت البلد غالياً وستكلفه أضعاف هذا الثمن في الفترة القادمة ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وإن هؤلاء المتفرجين والمتخاذلين هم الذين سيتحملون مسؤولية فقدان البلد سيادته واستقلاله واستباحته من قبل الأجنبي, يشاركهم النظام الفردي المستبد وفشله في مخطط التصدي للعدوان بسبب دكتاتوريته وعنجهيته الفارغة وغرقه في الخيال وعدم عمقه في حساب القوى المحيطة به سواء في فصائل أعوانه أو أعدائه وإنا لله وإنا إليه راجعون.

نظام صدام وأجهزته القمعية

لقد كان انهيار نظام صدام وأجهزته القمعية والإدارية في يوم واحد هو يوم الاثنين7/ 4 وهو يوم ميلاد حزب البعث، ولغرض تكوين فكرة عن النظام وأجهزته القمعية الكثيرة لأكبر نظام قمعي ودولة ذات قبضة حديدية في العالم العربي سنحاول أن نلقي الضوء على عدد هذه الأجهزة ومؤسساتها حسب ما يراه بعض شهود العيان وأفراد الشعب والحزب والجيش ممن عاشوا وشهدوا وسمعوا عنها خلال العشرين سنة الماضية وهي: جهاز الحزب الحاكم ويضم أكثر من خمسة ملايين عضو، علماً بأن درجات الحزب تبدأ من مؤيد ثم نصير ثم (رفيق) عضو فرقة ثم عضو شعبة ثم عضو فرع ثم عضو قيادة قطرية أو قومية. أما الأجهزة القمعية الأخرى فهي: جهاز الاستخبارات ثم جهاز المخابرات ثم جهاز الأمن العام ثم جهاز الأمن الخاص وجهاز الأمن الاقتصادي ثم جهاز الحماية ثم الحرس الجمهوري ثم الطوارئ ثم الجيش ثم الشرطة ثم فدائيو صدام ثم أجهزة ديوان الرئاسة السرية وغيرها مما لا يعلمه إلا الله والراسخون في معرفة هذا النظام، علما بأن هذه الأجهزة تراقب وترصد إحداها الأخرى فضلاً عن مراقبة الناس بكل صنوفهم وفئاتهم، وفق توجيه خاص وأسلوب خفي عن أنظار الناس والأجهزة الأخرى، كما أن كل مسؤول أو مدير عام أو آمر وحدة أو وزير له

بديل ومراقب سري يراقب حركاته وسكناته لئلا يشذ عن الطريق ويفكر بما يخالف مزاج وخطة القائد, ولو وسوس له شيطانه وفكر فالويل له، فقد يهان أو يسجن أو يطرد فوراً أو يرمى للكلاب والأسود الجائعة داخل أروقة الأنظمة القمعية السرية. ولقد كنا نرى ذلك واضحاً على وجوه المسؤولين والوزراء بل حتى على مستوى نواب رئيس النظام العديدين.

أما سجون النظام فهي من الكثرة والضبط والتنويع بحيث أن لكل جهاز قمعي من أجهزة النظام العديدة عدة سجون عدا السجون التقليدية القانونية الخاضعة للتفتيش الدولي ومنظمات حقوق الإنسان. وفي بغداد وحدها توجد مئات السجون الكبيرة والمتوسطة والصغيرة، كما أن هناك عدة محاكم خاصة سرية تغذي هذه السجون المتنوعة، كمحكمة الاستخبارات الخاصة ومحكمة الأمن الخاص ومحاكم الأمن العامة, والمشهور إن معظم هذه المحاكم صورية، حيث يزوّد القضاة بقرار الحكم للمتهمين بعد عدة جلسات شكلية ونظام دفاع صوري بسيط، ثم يقرأ القاضي الحكم الذي قررته جهات سرية خاصة تقبع خلف الكواليس، ثم يودع السجين في السجن المحدد لحالته، سواء كان سجن سرياً أم علنياً، مدنياً أم سياسياً, وإضافة لهذه السجون الخاصة بالمحكومين والنزلاء هناك سجون خاصة بالموقوفين الذين لم يتم محاكمتهم، فقد يستمر المتهم السياسي بدون محاكمة أشهراً طويلة أو سنين عديدة أو يوضع في

أماكن سرية دون تحديد للمدة، عدا الحالات التي تنتظر الإعدام أو قرار رئيس النظام للبت في أمرهم، إن كل تلك الصور وغيرها مما عاشها العراقيون خلال العقود الثلاثة من حكم البعث وقائده المتأله صدام حسين جعلت الناس في حالة قلق ورعب مستديم وكان المعارض للنظام يعرّض أهله وعشيرته لنقمة صدام وانتقامه. ولذلك كان الرعب وليس مجرد الخوف من النظام والناعقين له هو الحالة السائدة بين الشعب العراقي, ولا يمكن أن يتصور أحد أن هذا المارد العملاق والنظام الحديدي سينهار في يوم وليلة دون أن يدافع عنه أحد أو يأسف عليه أحد من أفراد الشعب الذي عانى كثيراً ودفع الثمن غالياً في وجود صدام كما أنه سيدفع الثمن أضعافاً مضاعفة بعد رحيله, لأن صدام لم يترك للبلد من يقوده، وإن الحرب والفوضى لم تترك هيكلاً أو مؤسسة يستند إليها من يريد القيادة بعده.أما العدل والعدالة في نظام صدام فليس لها أثر حقيقي بين الناس سوى الاسم والادعاء , شأنها شأن الشورى والحرية التي تجدها فقط مكتوبة في أدبيات الحزب وفي دوائر وزارة العدل وغيرها لغرض ترديدها على الأفواه كأنها عبارات صوفية غامضة ليس لها معنى إلا في قلب القائد الملهم ولا يجوز التوسع في تفسيرها, أما الظلم الذي هو نقيض العدل فقد كان متأصلا في الحياة في ظل حكم صدام حتى ظن المخلصون أن لا نجاة منه إلا بالموت أو الاستسلام له, وقديما قال بعض الفقهاء أن الحياة في ظل حاكم

كافر عادل أفضل من حياة في ظل حاكم مسلم ظالم, حتى غالى البعض في فهم ذلك إلى الدعوة إلى الاستسلام وهذا مما لا يقره الإسلام, ولكن العلماء أرادوا أن يحذروا من خطورة الظلم على العباد وانه قد يكون السبب الذي قدره الله أو سنته سبحانه لتسلط الكافر على بلاد الإسلام إذا كان أكثر عدلا من الحاكم المسلم, فهي دعوة لحكام المسلمين للتوبة والعودة عن غيهم وظلمهم للمسلمين, وليست دعوة للمسلمين للاستعانة بالكافر على المسلم أو تمني السقوط في أحضان المستعمرين والمحتلين, وشتان بين الفهمين.ومن صور الظلم الكثيرة التي ألفناها في عهد صدام أن الامتيازات والنعم والمسؤوليات والرئاسة والتصدر والرواتب العالية والمكافآت والإكراميات وما تسمى بهدايا المناسبات الشهرية كلها كانت حكرا على صدام وأهله وعشيرته وحزبه وأتباعه والناعقين له والمنافقين والمتزلفين ولو على حساب الأبرياء والضعفاء والمساكين من أبناء الشعب.حتى ساد الدجل والكذب والرشوة والمحسوبية وفقد الأمل بالعدل والعدالة, ومع ذلك على كل عراقي أن يقرّ بوجودها ويؤكد أهميتها في حياة العراق شأنها شأن ثلاثية حزب البعث (الوحدة والحرية والاشتراكية) التي حفظها الشعب منذ السبعينات ولكنه إلى الآن لم يفهم معناها, وقد فسّرتها أحدى عجائز العراق في السبعينات بأنها بنات البكر(الرئيس العراقي السابق)..! ومن صور الظلم قي الوسط الطلابي مثلا أن هناك امتيازات عديدة عدا الامتيازات

الخاصة بالمسؤولين والوزراء وحجز المقاعد في الكليات الراقية والمرغوبة كالطب والهندسة, يسمى امتياز إضافة الدرجات إلى المعدل لطلبة الصف المنتهي (السادس الإعدادي), وهو عبارة عن إضافة خمس درجات على المعدل لكل طالب يكون والده حاملاً شارة الحزب أو عضواً كبيراً في الحزب أو عنده نوط شجاعة أو كان شهيدا في أم المعارك (حرب الكويت) أو قادسية صدام (حرب إيران) أو وزيرا أو آمرا في الجيش والحرس أو من أصدقاء صدام أو مدرسا أو ...ولا يستغرب القاريء إذا علم أن المعدل قد يصل إلى 115 من 100 بسبب هذه الإضافات المجنونة الظالمة والتي استمرأها الشعب وأصبح يستحل السحت والحرام والظلم, والتي أدت إلى انتشار الحقد والكره بين الطلبة والتنافس غير المشروع, حتى لتجد أن طالبا لديه معدل 100 من 100 بدون إضافة ولكنه لا يستطيع الحصول على كلية الطب أو الكلية التي يرغبها, ولا يختلف الأمر في الدراسات العليا إن لم يكن أكثر ظلما وتمييزا, وربما هو أقذر من التمييز العنصري نفسه, لأن أهم الشروط لقبول الطلبة للدراسات العليا أن يكون من عبّاد هبل أي يكون منتميا للحزب الحاكم ثم أن تقبله لجنة يرأسها نائب الرئيس عزة الدوري, وينبغي أن يكون مرغوبا فيه وأن تنطبق عليه شروط غاية في التعسف والتقييد ... وهكذا باقي مرافق الحياة.

في الحقيقة لا يمكن لأحد أن يصور حياة العراقيين في ظل النفاق والوصولية والنفعية التي كانت سائدة بين الناس لاسيما بين كبار الحزبيين والمسؤولين في الدولة ومدى الكذب والدجل الذي كان يغرق قائد النظام ببحر من الخيال والأماني الزائفة عن قوة النظام وتلاحم الشعب معه, ولا يمكننا تصوير ذلك إلا كما صور لنا الكاتب الأمريكي اللاتيني في قصته السياسية (قصة ملابس الإمبراطور الجديدة) المشهورة التي تصور الخداع المتبادل بين الدكتاتور وشعبه المستعبد بحيث كلاهما يصدق كذبته ولا يكشف ذلك إلا فطرة طفل صغير بريء وهو يرى الإمبراطور يمشي عارياً بدون ملابس بعد أن خدعه المحتالون والنفعيون في إحدى احتفالات العيد الوطني الكبير, فيصرخ في وجه أبيه قائلا: يا أبتي إن الإمبراطور يسير عارياً... ولا يصور تلك الحالة التي عاشها الناس في ظل النظم الدكتاتورية الآسنة التي مرد الناس فيها على النفاق إلا قول الشاعر المصري الشهيد هاشم الرفاعي في قصيدته التي كانت بعنوان امرأة الشهيد تهدهد طفلها وهو يقول:

لم يبق مسموعاً سوى ... صوت النفاق

صوت الذين يقدسون الفرد من دون الإله

ويسبحون بحمده ...ويقدمون له الصلاة

لقد انشغل صدام في معظم فترة حكمه منذ عام 1979 بالحروب والصراعات السياسية العنيفة المحلية والدولية التي كانت غالباً ما

تـؤدي إلى الحـروب المهلكـة والمـدمرة, فكانـت حـرب إيـران قـد غطـت معظـم عقـد الثمانينات, ثم جاءت حرب الكويت وهزيمة الجيش المرّة عـلى يـد التحـالف الثلاثينـي بقيادة بوش الأب الذي كان أكثر حكمة من ولده، ولم يسمح بسقوط صدام الـذي كـان وشيكاً بعد انتهاء الحرب مباشرةً, واكتفى بتوقيعه على الحصـار وعـلى تنـازلات مرعبـة على حساب الشعب لصالح الأمريكان, وتجرع الشعب في سنين الحصار العجاف أشكال العذاب والذل لكي يبقى صـدام في سـدة الحكـم، ويسـتفيد الأمريكـان والصـهاينة مـن حصار لا يبرره إلا بقاء صدام في الحكم, وقد انشغل صـدام خـلال سـنين الحصـار ببنـاء الجوامـع الضـخمة والقصـور الرئاسـية المتراميـة والصروح الكبـيرة المخلـدة لعهـده، وبالحملة الإيمانيـة الكـبرى التـي كـان يقودهـا في الغالـب أذنـاب النظـام المنـافقون في الجوامع والمدارس, لذلك لم تثمر عن شئ كبير ولم يباركهـا الـلــه سـبحانه إلا في أمـاكن محدودة وببركة وصـدق القلـة القليلـة التـي أخلصـت النيـة ولم يعـقها لغـو العـابثين والفاسقين.

بعد أن قام المستشار العلمي للرئيس صدام الدكتور عامر السعدي بتسـليم نفسـه إلى قوات التحالف يوم السبت 13/ 4، تم اعتقال وطبان إبراهيم وبـرزان إبـراهيم التكريتي أخوة الرئيس العراقي غير الأشقاء, والـدكتور جعفـر ضـياء جعفـر رئـيس الطاقة الذرية العراقية, والدكتور همام عبد الخالق وزير التعلـيم العـالي, ومحمـد حمـزة الزبيـدي عضـو القيـادة في حـزب البعـث يـوم 4/20، والـدكتور محمـد

مهدي صالح وزير التجارة والدكتور حكمت العزاوي وزير المالية في 4/23، وطارق عزيز نائب رئيس الوزراء والشخصية الإعلامية والسياسية المهمة في عهد صدام وعهد البكر الذي تم اعتقاله في يوم 4/25, والدكتور عامر رشيد العبيدي الذي سلم نفسه في يوم 4/28 ومزبان خضر هادي عضو قيادة في الحزب وقائد منطقة الفرات الأوسط والمهندس عبد التواب ملا حويش وزير التصنيع العسكري وطه محيي الدين معروف نائب رئيس الجمهورية يوم 5/1, ليصبح عدد المطلوبين للمحاكمة كمجرمي حرب 43 شخصاً من أصل 55 شخصا في القائمة التي أعلنتها قيادة قوات التحالف الأمريكي البريطاني، على رأسهم صدام حسين ونجلاه وعدد آخر من الوزراء والمسؤولين في النظام العراقي المندحر في الحرب. ومن بين هؤلاء العالمة البايولوجية الدكتورة هدى صالح مهدي عماش التي يحلو للإعلام الأمريكي أن يطلق عليها أسم سيدة الجمرة الخبيثة، والعالمة رحاب زوجة وزير النفط السابق د. عامر رشيد العبيدي، والتي أطلقوا عليها اسم السيدة الجرثومية، والمفارقة الغريبة في هذا الإعلام المخادع والمتحيز إنهم يحاولون الإيحاء بأن العراق يجب أن يكون فيه أسلحة دمار بايولوجية وجرثومية ونووية لوجود هؤلاء العلماء فيه، متناسين الكم الهائل لأمثال هؤلاء العلماء في كافة الدول وعلى رأسها أمريكا وإسرائيل، وإن الآلاف منهم يعملون بشكل علني وسري في مراكز الأبحاث التابعة لوكالة المخابرات الأمريكية

CIA والبنتاكون وغيرها من المؤسسات العسكرية والإستخباراتية الأمريكية دون أن يستطيع أحد الإشارة إلى انتهاكات الولايات المتحدة في قضايا استخدام أسلحة الدمار الشامل واليورانيوم المنضب والقنابل المحرمة في الحرب (حرب الخليج الثانية سنة 1991) وفي يوغسلافيا (في إقليم كوسوفو) وفي أفغانستان وحاليا في الحرب على العراق. وإن استخدام القنابل النووية التكتيكية في الرضوانية والمطار والأسلحة المحرمة الأخرى كالمنفلقة العنقودية والمايكروويفية والصوتية والثقيلة (10 طن) وغيرها على المناطق المدنية والخدمية في الناصرية والزبير والسماوة والفلوجة وبغداد في أحياء الفرات والدورة والسيدية والشعب والتاجي والمنصور والقصر الجمهوري والزعفرانية والنهروان وغيرها, والتي رفعت عدد الشهداء إلى أكثر من 100 ألف شهيد كان أكثر من نصفهم قد قضى بهذه الأسلحة المحرمة، وعدد كبير منهم من المدنيين العزل, وفي المقابل 20 ألف قتيل استطاع العراقيون جدع أنوفهم من الأمريكان والإنكليز بأسلحتهم التقليدية والعمليات الإستشهادية البطولية في الصحراء الغربية والجنوبية وعلى أسوار المدن العراقية وفي مواجهة الطائرات والسمتيات التي أسقطت بالنيران العراقية خلال الأسابيع الثلاثة من الحرب المشرفة التي خاضها العراق, رغم الخلل والثغرات الإدارية والفنية والعسكرية التي كان يعاني منها العراق بسبب قيادته الحالمة الجاهلة بأصول الحرب وسننها ومتطلباتها,

ورغم خيانة النفعيين والوصوليين من أفراد الحزب الحاكم وضعاف النفوس من البطانـة المحيطة بصدام، والتي أوهنها الترف والإمتيازات والسلطة والترفع عن خدمـة الشـعب، فجعلها تغلظ الأيمان لقائـدها بأنهـا سـتكون سـداً منيعـاً وعنوانـاً للتضـحية والشـهادة، ولكنها بقيت كلمات جوفاء لم تصمد في المحك فانهزمت وتبخرت ساعة التحدي الجـاد, تاركة الشعب والجيش وحده يقاتل قتال الأبطال, فكانت في مقدمة المنهزمين والواقعين تحت مظلة الإعـلام المخـادع والحـرب النفسـية الإعلاميـة لترويـع البلـد وتـدمير روحـه المعنوية وتصديه الشجاع لقوات الاحتلال، فكان صدام قد اعترف بخيانة حزبه ونكلهـم عن أيمانهم قبل رحيله من حكم العراق ليلة الأربعاء 9/ 4, ليثبت للتاريخ تلك الحقيقة المؤلمة التي لابد لكل فرعون وطاغية أن يراها في نهاية حكمه وسـلطته الكهنوتيـة, كـما قالها فرعون موسى قبيل غرقه, وقد سبق قـدر اللــه ذلـك الاعـتراف بـأن القـوة لـلــه جميعاً, وأن مبادئ الأحزاب الوضعية إنما تذهب هبـاءاً في سـاعة التحـدي وحـين تحـين ساعة السنن الإلهيـة ولـن تجـد لسـنة اللــه تحـويلا ولا تبـديلا, ولسـان الحـال يقـول ليت صدام قـد أدرك ذلـك قبـل نفـاذ القـدر وقبـل ذلـك الـدمار الـذي حـل بـالعراق بسبب الطغيان والظلم العام وهو الآن يرزح تحت الاحتلال الذي لا نعلم متى ينتهـي أمده.

لقـد كـان مـن مظـاهر حكـم صـدام في العـراق خـلال العشريـن سـنة الماضـية مــن الحكــم الاســتبدادي, أن كــل شيء في العــراق قديمــه

وجديده يسمى باسم صدام وكل إنجاز أو عمل جديد يمكن أن يخدم الشعب سواء زيادة راتب أو بناء سد أو إنشاء طريق أو حفر نهر كلها كانت تعد مكارم من القائد إلى الشعب, بل من الطريف والمعتاد أن تسمع بقرار أنه مكرمة القائد ثم يلغى ويعد إلغائه مكرمة القائد أيضا, سواء كان القرار سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً كما حدث في تشريعات المرور والعفو عن السجناء وغيرها من القرارات الكبيرة والصغيرة, وكذلك في كل نشاط من النشاطات العامة في أي وزارة من وزاراته التي كانت في الحقيقة ليست وزارات ولا وزراء وإنما مكاتب سكرتارية تابعة إلى ديوان الرئاسة ومجلس قيادة الثورة والحزب الذي يحكمه القائد الأوحد.

لقد تم تغيير أسماء أحياء ومستشفيات وجامعات ومدارس ومكتبات ومتاحف في طول العراق وعرضه كلها إلى اسم صدام، فمدينة الثورة في بغداد التي بناها الرئيس العراقي الأسبق عبد الكريم قاسم أصبح اسمها مدينة صدام، ومستشفى مدينة الطب التي بنيت بعد ثورة 1958 أصبح اسمها مدينة صدام الطبية، وكذلك جامعة صدام الإسلامية وجامعة صدام للعلوم والهندسة وكلية صدام الطبية وكلية صدام للحقوق وكلية صدام العسكرية وغيرها كثير، ومن المدن والسدود صدامية الكرخ وهي حي سوق حمادة القديم في منطقة الكرخ، وسد صدام في الموصل وصدامية الثرثار في سامراء وقصور صدام الكثيرة الفخمة التي اضطر أن يسميها قصور الشعب

بسبب ضغط الإعلام الأمريكي أثناء التفتيش على الأسلحة من قبل لجان الأمم المتحدة في نهاية التسعينات، وصدامية الفلوجة قرب بحيرة الحبانية وصدامية البصرة وبابل والموصل والأنبار وغيرها من المحافظات والمدن الكبيرة والصغيرة، فقد دخل اسم صدام في كل متر وحجر من أرض العراق حتى العملة العراقية لم تسلم من صورة صدام، بعد أن تدهورت بعد حرب الكويت بشكل كبير جداً، فمن قيمتها في الثمانينات الدينار يساوي دولار أو أقل أو أكثر قليلاً إلى أن وصلت في عام 1995، الدولار يساوي 3000 دينار، أي وصل تضخم سعر الدينار إلى عشرة آلاف ضعف للسعر الرسمي للدولار (دينار واحد يساوي 3.32 دولار) والطريف أن رواتب الموظفين بقيت على حالها تقريباً بالدينار، أي إن معدل راتب الموظفين خلال فترة الحصار لم يكن يزيد على خمسة دولارات عدا أصحاب الامتيازات والمقربين من النظام وقيادات الحزب، فعاش الناس في فقر شديد وفي عالم كله يدور حول صدام وصوره، حتى كان الداغستانيون حين يأتون للحج ويجلبون بضاعة إلى بغداد، يعبّرون عن قيمة الحاجة بكلمة 7 صدام أو كذا صدام ويقصدون بصدام فئة 250 دينار إشارةً إلى صورته في العملة, بل إن العراق أصبح اسمه عراق صدام، وعالم صدام وعهده المنير سماه بعض الإعلاميين العراقيين السائرين في ركاب الآلات التي يسوسها صدام ونظامه, بأن العراق العظيم هو كوكب صدام، ولا أدري هل قصد

هؤلاء أن هذا الكوكب الذي يحكمه صدام هو الأرض كلها، أم أن العراق أصبح يمثل كوكب الأرض, وإنه لا قيمة اعتبارية لمن حوله سواء في العالم العربي أو الإسلامي أو العالم بأسره، لقد كان صدام أسير خياله الخاص كأي دكتاتور سبقه من أيام أتاتورك وهتلر وستالين وغيرهم من الأصنام والفراعنة الذين ألهوا أنفسهم وأرادوا من شعوبهم أن يعبدوهم من دون الله قال تعالى: [قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد]. (سورة غافر/294)، وقال تعالى يصف الشعب الذي استعبده فرعون: (فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين).

لقد استفاق صدام بعد الهزيمة فوجد أنه لم يقاتل معه الموالون له والمنتفعون من حزبه وأعوانه الذين كانوا يصفقون له ويبطشون بالناس، وإنما قاتل الشعب صاحب القضية المؤمن بربه وبلده والرافض للاحتلال الأجنبي مهما كلف ذلك من تضحيات, فقالها صدام في كلمته الأخيرة بمرارة دون أن يستطيع أن يغير من الواقع الجديد والهزيمة النكراء لنظامه وحزبه, ودون أن ينقذ ملكه العظيم من الضياع أو بلده الذي أحبه من الاحتلال البغيض.

ومن مظاهر تأليه صدام لنفسه واستخفافه بشعبه واستعبادهم، كثرة التماثيل والأصنام والنصب والصور المنتشرة في الشوارع والدوائر والشركات والبيوت بشكل مفرط وغير معقول، فهناك مئات الصور الكبيرة في كل مدينة من مدن العراق بل في كل حي ومحلة أحياناً،

ففي كل فلكة وساحة توجد صورة أو صورتان, وفي أبواب مقرات الحزب وأبواب الشركات والمنشآت والدوائر الحكومية والأهلية، وفي باب النظام لكل وحدة عسكرية، وكذلك داخل الأزقة والأسواق والمنتديات وغيرها، كما أن التماثيل قد كثرت بشكل مفرط في السنين الأخيرة في المدن العراقية، بسبب التقليد المتزايد الذي شجّعه وفرضه الحزب على منتسبيه وعلى المسؤولين في دوائر الدولة وهم من أعضاء الحزب بداهة، لأنه لا يمكن لأي عراقي أن يكون مسؤولا في الدولة إلا إذا كان من أعضاء الحزب الحاكم، بل وصل الأمر أن التحزب فرض على طلاب المدارس بشكل جماعي وإجباري حتى وصل إلى طلاب السادس الابتدائي للأطفال بعمر 12 سنة، فضلا عن المنهج الحزبي وسيرة القائد التي فرضت على جميع مراحل الدراسة من الابتدائية حتى الجامعة ضمن المادة التي تسمى الثقافة القومية. وكان من أدبيات هذا التقليد الحزبي عند إقامة احتفاليات في الوزارات والمؤسسات والدوائر والفرق الحزبية أن يكون أهم فقرات هذه الاحتفالية هو افتتاح صورة كبيرة أو تمثال لصدام في مداخل المدن والوزارات والشركات وغيرها، وكانت أهم المناسبات التي تُستغل لافتتاح صورة أو تمثال هي مناسبة ميلاد القائد في 28/نيسان وميلاد الحزب 7/ نيسان وثورات تموز العديدة وهي ثورة 14/تموز و ثورة 17-30/ تموز التي جاءت بحزب البعث إلى السلطة عام 1968, ومناسبة توقف الحرب العراقية

الإيرانية في 8/ آب وغيرها من المناسبات التي اختلقها وأعتمـدها الحـزب لتمجيـد تاريخه ونضاله. أما أسماء وألقاب القائد فقد وصلت إلى تسعة وتسـعين اسـما بمـا يشابه ويقابل أسماء اللـه الحسنى. وللتاريخ يمكن أن نقول إن صدام لم يكن يأمر بنفسه بهذه الأفعال النفاقية والوصولية التي تمجد صدام وتقدسه, وإنما هو سياق تلقائي يسير عليه كل شعب يملكه حاكم دكتاتور كما حـدث في مصر في عهـد عبـد الناصر وتيتو في يوغسلافيا وجاوجسكو في رومانيا وقبلهم هتلـر في ألمانيـا وسـتالين في روسيا, فإن تلك المظاهر السلبية تنمو وتزدهر في جو من التناغم والتوافـق بـين الحاكم الإله المحب للتمجيد والشعب المستعبد المغلوب عـلى أمـره الـذي مسـخه الاستبداد والاستعباد.

الانفلات الأمني وأعمال السلب والنهب

في صبيحة يوم الجمعة 11/ 4 وبعد انتهاء آخر المعـارك في بغـداد وهـي معركـة الأعظمية, وبعد ظهر هذا اليوم الذي لم تصلّ فيـه صـلاة الجمعـة لعـدم وجـود دولة أو إمام كما هو رأي أبي حنيفة وغـيره، خرجـت بعـد الظهـر- بعـد الهـدوء النسبي للقصف- وتوجهت باتجاه المقبرة الملكيـة وكنـت قـد سـمعت عـن بـدء أعمال السلب والنهب في الدوائر الحكومية والمباني والمؤسسات العامة، ففوجئت بوجود عشرات السيارات بجـوار جامعـة صـدام للعلـوم الإسـلامية, والتـي تقـع

قرب المقبرة الملكية في الأعظمية وكانت أبواب الجامعة مفتّحة، والسرّاق يتسابقون على نهب ما فيها من أجهزة ومعدات وحاسبات ومكيفات وأجهزة كهربائية ولم يتركوا حتى الأخشاب والأوراق والوثائق، وحينما وقفت أمام الجامعة في الشارع المقابل لها، كدت أتقيأ من شدة الصدمة وعيني تدمع من هذه المناظر المخزية التي يندى لها الجبين، وتدعو إلى الازدراء والوجل من الحالة التي وصلنا إليها بعد اختفاء الدولة وسقوط الحزب والنظام. فمهما جال وابتعد بنا الخيال وافترضنا ما يمكن أن يصيبنا نتيجة هذا الغزو والعدوان لا يمكن أن نتخيل ما حصل من أعمال قرصنة وسرقة وتدمير لاسيما في الأيام الثلاثة التالية, بل حتى نهاية الأسبوع.

كان الذهول واليأس والإحباط الذي سيطر علينا من تلك الأعمال المشينة قد أقعدني عن الحركة في يوم السبت فمكثت في الأعظمية مع بعض الإخوة نتواصى بحفظ الأمن في المحلة والمستشفى القريبة منا وهي مستشفى النعمان والجوامع المحيطة بنا، وأثناء تشكيل لجان من المتطوعين والخفراء لحماية المستشفى والمنطقة قام مجموعة من الوجهاء والأساتذة في الأعظمية ومعظم أحياء بغداد بالتواصي لتوجيه نداءات إلى الناس, وفي حدود منطقتنا قمنا بتوجيه نداء عاجل لوقف أعمال السلب والنهب والتصدي لها والدعوة لتشكيل لجان محلية مسلحة لحماية المناطق والدوائر والمستشفيات والجامعات، بعد أن سمعنا أن عدداً من الجامعات والمكتبات والمستشفيات

والمصارف قد سرقت وأحرقت. وقد دعاني أحد هؤلاء الأساتذة للاشتراك في هـذا العمـل العاجل الذي قد يؤدي إلى نوع من المعالجة ومـلء الفـراغ الأمنـي الـذي أحدثـه تبخـر النظام وأجهزته بشكل سريع ومفاجئ.

وأدناه نص هذا النداء الذي صدر يوم السبت 12/ 4، وتم توزيعه إلى الناس في الأمـاكن العامة والجوامع يوم الأحد 13/ 4.

نداء عاجل إلى الرأي العراقي والعربي والإنساني

" أوقفوا عمليات تدمير العراق الجارية تحت أنظار قوات الاحتلال الأجنبي وبتشجيع منه "

إننا معشر العراقيين بعد الحروب المدمرة وحصار اقتصادي وعلمي وإنساني امتـد لأكثر من عشر سنوات، ما عاد أمامنا من نتّجه إليه سوى اللـه سبحانه وتعالى، وأبنـاء شـعبنا إزاء المحنة الجديدة التي سببها تغييب الشعب ومصادرة حكومة الحـزب الواحـد لكـل حقوق شعبنا المدنية ومنها حقوق أعضاء الحزب الواحد ذاته.

إن المحتلـين الجـدد للعـراق والـذين جـاءوا باسـم الحريـة والديمقراطيـة أخـذوا يكشـفون حقيقـة نوايـاهم – وعـلى لسـان رامسـفيلد وولفتـز وبلـير – بتعريف الحرية بأنها حرية النهب والسلب، إنها حرية السرّاق والمجرمين وقطاع الطرق.

إنمـا يجـري في بغـداد ومعظـم المـدن العراقيـة الأخـرى مـن حـوادث نهـب وسـلب وقتـل إنمـا يعيـد إلى الأذهـان أبشـع صـور الغـزو التـتري

الذي قاده هولاكو، حيث بدأ الاستعمار والغزو الأنكلوأمريكي للعراق يصب جام غضبه وحقده على شعب العراق ومستشفياته وجامعاته ومتاحفه ومكتباته. إنه الحقد الصهيوني الهادف إلى تدمير حاضر العراق ومستقبله، بل وتراثه الحضاري أيضاً.

فقادة الغزو لا يخفون ميولهم الصهيونية، كما أن ممارساتهم الحاقدة لا تدع مجالاً للشك في نزعتهم الصهيونية الساعية إلى تدمير كل شيء في العراق من خلال عملية خداع كبرى يسهلها التخاذل المشين للحكام العرب، حيث يجري الحديث عن حل للقضية الفلسطينية بعدما يتم تصفية العراق، ولا ندري كيف تكون عملية صهينة العراق وتدميره طريقاً للدولة الفلسطينية المزعومة.

أيها الأخوة.. إن عصابات السلب والنهب والحرق هي في معظمها صدرت من جهات جرى تنظيمها من قبل وكالات مخابرات أمريكية وإنكليزية وصهيونية، ومع الأسف، عربية أيضاً. بالإضافة إلى التواطؤ الصارخ من قبل قوى الاحتلال الأجنبي ومساعدتهم العملية للغوغاء والسرّاق. ففي حالات كثيرة جرى تفجير مداخل بعض البنايات الحكومية من قبل قوات الاحتلال وإفساح المجال أمام الرعاع لاقتحام هذه المباني كما حدث لبناية البنك المركزي العراقي وبناية الجامعة التكنولوجية والجامعة المستنصرية، مثلما يتم نهب المستشفيات والدوائر الخدمية أمام أنظار قوات الاحتلال الأجنبي.

يا معشر العراقيين.. ما عاد لكم من نصير سوى الله جلت قدرته، والارتكاز إلى شجاعتكم وتكاتفكم وتضامنكم أمام هذه الهجمة البربرية.. وإننا ندعوكم وعلى الفور إلى:-

1. تشكيل الجان محلية مسلحة لحماية كل منطقة وحي وشارع بالاعتماد على قواكم الذاتية، وعدم التردد في إطلاق النار على عصابات السلب والنهب. صونوا الدوائر العامة والمتاجر والبيوت من أي اعتداء.
2. تشكيل لجان لحماية الجامعات والمستشفيات والمؤسسات العامة من عمليات الحرق والتدمير.
3. صادروا الأموال المسروقة بالقوة، وليتم إيداعها في المساجد والحسينيات تمهيداً لإعادتها إلى أصحابها الشرعيين.
4. فليتجمع أبناء الشعب في المساجد والحسينيات والكنائس للعمل على التنسيق والتكاثف وتشكيل لجان الإدارية المحلية المنبثقة من الشعب وليس من جهات الاحتلال الأجنبي.

يا معشر العراقيين.. لقد بدأت الصفحة الثانية من عمليات تخريب العراق بمحاولات إثارة الفتنة الطائفية، ولكن هذه الصفحة إنما تصطدم بالوحدة الوطنية الواثقة وخاصة بين أبناء السنة والشيعة. ومع ذلك يجب اتخاذ أعلى أشكال الحذر من هذه المؤامرات والتصدي لها.

وتذكروا أن الشيعة والسنة جميعاً إنما يؤمنون بإله واحد وهو الـلـه جلـت قدرتـه وبرسول واحد عليه الصلاة والسلام، وبقرآن واحـد وبسـنة نبويـة شريفـة تجمعنـا عـلى كلمة سواء. فاتحدوا وتماسكوا ودافعوا سوية عن العراق وعن ممتلكـات وحيـاة أخوتنـا المسيحيين سواء بسواء والحذر الحذر من الفتن. أما الحكام العرب فلا نريد منهم لا دواءً ولا غذاءً, فثروات العراق التي نهلوا منها جميعا تكفي شـعبنا وأمتنـا. إن أجهـزة القمـع ومصادرة الحريات قد فرّت من الساحة لحظة الحاجـة إليهـا وتحـاول الآن العـودة عـن طريق استعطاف قوات الغزو والاحتلال, فالانتهازيون والوصـوليون لا يملكـون أي مبـدأ سوى التسلط والاستغلال.

عاش العراق.. عاشت الوحدة الوطنيـة.. عاشـت الوحـدة الإسـلامية.. خـالدة أبـداً ألأخوة العربية- الكردية – التركمانية.. إلى الأمام من أجل لجان الحماية الشعبية الذاتية تمهيدا لطرد المحتلين الغزاة.

د. طـاهر البـكـاء/ أسـتـاذ جامـعـي

عـلاء الديـن المدرس/ مفـكـر إسـلامي

د. عبـد اللطيف الميـاح/ أسـتـاذ جامعي

د. وميـض جمال عمر نظمي/ مفكر قومي

محمد الشواف/ عضو رابطة العراق الموحد

د. ظـافر العـانـي/ بـاحث أكـاديمي

وكان أقدم وأهم شخص قام بصياغة النداء هو د.وميض جمال، وهو مفكر قومي في منتصف الستين من العمر تقريبا ولم أسمع به سابقا ولم أعرفه إلا في ذلك اليوم -رغم شهرته- بسبب جو الاستبداد في عصر صدام، وقد وجدته رجلا حكيما هادئا مخلصا لوطنه متواضعا دمث الأخلاق، أما باقي الأشخاص الذين صدر النداء بأسمائهم فلم أعرف منهم غير الأخ ظافر العاني وهو أستاذ في كلية العلوم السياسية في جامعة بغداد.

في مساء السبت سمعنا من الإذاعات الأجنبية أن مستشفى الكندي ومستشفى اليرموك قد نهبت من قبل الغوغاء وكذلك الجامعة المستنصرية والبنك المركزي العراقي والمتحف العراقي وقد أكدت إذاعة الـBBC إن سرقة المتحف في بغداد تعد من أفدح الخسائر التي تعرض لها شعب العراق، والمتحف العراقي وهو ثروة حضارية وتراثية لأعظم المتاحف في العالم، حيث تقدر قيمته بعشرات المليارات من الدولارات، وأن عدد القطع الأثرية المنهوبة تزيد عن 200 ألف قطعة، منها لوحة بانوراما تصور سجود ملك يهوذا مع ثلاثة آلاف يهودي من يهود السبي البابلي أمام ملك بابل نبوخذنصر[*] ولُقى ورقم طينية وتحف أثرية تعود إلى ما قبل خمسة

[*] سألت أحد المختصين في الآثار عن هذه اللوحة فأجاب بأن اللوحة الموجودة في المتحف العراقي غير أصلية, وإن اللوحة الأصلية موجودة حالياً في المتحف البريطاني، غير أنه أكد وجود لوحات وآثار أخرى تخص السبي البابلي وهي من ضمن الآثار المسروقة في عمليات نهب المتاحف التي جرت بعد سقوط بغداد.

آلاف سنة. كما سرق متحف الآثار في الموصل أيضا وهو لا يقل أهمية عن متحف بغداد وفيه أكثر من 100 ألف قطعة أثرية تخص الإمبراطورية الآشورية التي حكمت العالم من نينوى قبل ثلاثة آلاف سنة. فما كان منا في صباح اليوم التالي الأحد 4/13 أن هرعنا أنا ونسيبي د. محمد الأعظمي أستاذ الآثار في كلية الآداب/ جامعة بغداد مع صديق ثالث إلى المتحف العراقي للإطلاع على ما حصل في أعظم سرقة في تاريخ العراق- وقد وصلنا بحدود الساعة العاشرة صباحاً ووجدنا بعض الموظفين والمتطوعين لحراسة المتحف بعد سرقته، ولم يفتحوا باب المتحف لنا إلا بعد أن تأكدوا أننا جئنا للدفاع عن المتحف ومعنا الأخ محمد الأعظمي- أستاذ الآثار- وقمنا بجولة في قاعات المتحف وأروقته، وليتنا لم نقم بتلك الجولة الحزينة، لقد كانت شديدة الألم على أنفسنا، أن نرى تراثنا وتاريخنا يسرق بهذا الشكل البربري الهمجي الإجرامي، ولقد كانت أعمال السلب والنهب في معظم الأماكن التي طالها النهب، وفي مقدمتها المتاحف والمصارف والمخازن واضحة التدبير والتخطيط في تسهيل تلك الأعمال ومساعدة هؤلاء الغوغاء لسرقة البلد وثروته وتاريخه ووثائقه ومكتباته، لم تكن هذه الأعمال

عشوائية مطلقاً، وهناك شواهد كثيرة وشهود عيان على أن هذه الجرائم كانت مدبرة وكانت تحدث تحت أذن وعيون الغزاة وبتشجيعهم ومساعدتهم، فقد كان السرّاق محترفين وكان معهم معدات متخصصة للسلب والنهب, فقد وجدنا قطعاً حديدية كبيرة في أحدى قاعات المتحف تستخدم للتهديم والكسر والتدمير، وقد وجدنا بعض القاعات تم الدخول إليها من الجدران بعد إحداث فتحة كبيرة فيها وليس من الأبواب، وقد وجدنا أيضا ان الكثير من الحاويات الزجاجية الفارغة والتي تم إخلاء محتوياتها قبل الحرب قد دمرت عمدا دون سبب، كما أن الكثير من المباني والدوائر الخدمية والتوثيقية والمخازن والجامعات والمكتبات قد أحرقت بالكامل دون أن يسرق منها شيء, وقد تجولت بنفسي وبسيارتي في معظم أنحاء بغداد في الأيام الثلاثة الأحد والاثنين والثلاثاء للوقوف على أعمال السلب والنهب والتدمير المتعمد لمفردات البلد ومرافقه العامة, فوجدت الأصابع الخفية واضحة بينه. فحينما تمرّ على المخازن الضخمة المختلفة الأنواع على جانبي الطريق السريع في الرصافة تجد النار تلتهمها دون وجود سرّاق أو عابثين قربها, كما أن المكتبة الوطنية ودار الكتب والوثائق في باب المعظم ومكتبة وزارة الأوقاف النادرة الثمينة في وسط بغداد قد احترقت بأكملها, وليس هناك الآن في زحمة الحرب والتدمير من يريد سرقة الكتب ونهبها، وإنما المطلوب تدميرها ليس إلا, وكذا الجامعة المستنصرية وكلية

الآداب في الوزيرية وأما البنك المركزي فقد حـدثني أحـد الثقـات- وهـو أبـو مصطفى- أنه شاهد بأم عينه أن البنك المركزي قبل أن يسرق قد ضربت بابه المحصنة بالقاذفات دون جدوى، مما أدى بقوات الاحتلال أن يجهزوا السرّاق بقنابـل خاصـة لتـدمير البـاب، وبعـد فـتح البـاب دخـل عـدد مـن الجنـود الأمريكان فسرقوا كمية من الدولارات تصـل إلى نصـف مليـون دولار تقريبـاً، ثم تركوا الباب مفتوحـا لنهبـه وإخلائـه. والأمـر نفسـه حـدث مـع الجامعـة التكنولوجيـة حيـث دخلـت قـوات التحـالف المشـين حـرم الجامعـة وكسرت الباب الرئيسية بالدروع وأخذت تتجـول داخـل شـوارع الجامعـة ثـم تركتهـا للنهب والسلب, وكان ذلك يوم الأحد 4/13. والأمر نفسـه في مراكـز الشرطـة والمرور حيـث سرق الغوغـاء الوثـائق والأوراق التـي تخـص السـنويات التـي تحدد ملكية السيارات لكي يتسنى لهم عمل سـنويات للسـيارات التـي تمـت سرقتها لتصبح ملكا للسرّاق والمجرمين. وحدّثني شـاهد عيـان ثقـة انـه تمـت سرقة المتحف العراقي بعد دخول الأمريكان بسيارة نقـل إلى سـاحة المتحـف وفتح باب السور لكي يتسنى لـلسرّاق المحترفـين سرقتـه, وقــد رأيـت مكتبـة المتحـف قـد سرقـت أيضـا وهـي تضـم نـوادر الكتـب والمصـادر والمراجـع الأثريـة.[*] إنــه أمـر دُبّـر بليـل وظـلام كـما يقـال، وقـد حـدثني هــذا

---

[*] مـن المعـروف أن العـراق هـو أقـدم حضـارة في التـاريخ وأن حضـارته وتراثـه

ومضمون جميع التحف الآثارية والرقم المسمارية قد ترجم وكتب بجميع اللغات العالمية منذ مدة طويلة تزيد على القرن، لذا فإن بعض المحللين والمتخصصين لا يعطون أهمية كبيرة لعملية نهب المتاحف وأثراً فاعلاً في إثبات دور العراق الحضاري، ولا يعدو أثر هذه الجريمة عن كونها عملية قرصنة وسرقة لتحف ثمينة من الزاوية المادية، وإن التركيز الإعلامي على ذلك هو من إيحاء الحضارة الغربية للتقليل من شأن الحضارة الإسلامية، والتي تبلورت الآن بشكل مجسم في عقول ملايين المسلمين، وهي مستعدة للظهور في كل حين عندما يزال الغبش عنها، وهذا ما حصل حين تحطم الطاغوت وحزبه وظهرت آثار الحضارة الإسلامية والأخلاق التي تصدت للعدوان، ولن يتمكن الخداع والتزييف الإعلامي من طمسها مهما حاول الطغاة قال تعالى: [**يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون**] (سورة التوبة/32) ولعل عدم اهتمام المسلمين بالبحث عن الآثار وإقامة المتاحف لها يبين لنا إحدى النقاط التي تميز الحضارة الإسلامية عن غيرها، وإنهم أقاموا حضارتهم وسجلوا تاريخهم للبشرية دون الإلتفات إلى الوراء مستنيرين بقوله تعالى: [**أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمّر الله عليهم وللكافرين أمثالها**] (سورة محمد/ 10) ولذلك سجلوا تاريخ الأمم والملوك والرسل من خلال نصوص القرآن والسنة، كما فعل المؤرخون وعلماء السير والأخبار أمثال الطبري وابن الأثير وابن كثير وابن الجوزي وغيرهم. ومع ذلك فإن علم الآثار اليوم ومفرداته من الرقم والتحف والآثار هو أحد روافد المعرفة التاريخية وسجل الأمم والشعوب المستخرج من باطن الأرض شأن غيره من الكنوز.

الصديق عن بعض قادة القـوات الأمريكيـة المتواجـدين في فنـدق مريـديان، إن احتلال بغداد وما جرى بعده من أعمال السلب والنهب كانـت برغبـة وتنسـيق مع عملائهم وحلفائهم من الإسرائيليـين وبعـض العـرب، فقـد دخـل بغـداد مـع قوات الغزو1000 قنـاص خليجـي و 700 شـخص مـن الموسـاد الإسرائـيلي و500 شخص من أنصار حزب الكتائب اللبناني الموالي لإسرائيل مع عدد من الجواسيس العراقيين، والعهدة في هذا الخبر على الناقل وأظنه دقيقا في نقله عن الأمريكـان. وقـد رأيـت أمـس الاثنـين 4/14 وأنـا أمّـر مـن أمـام فنـدق مريـديان والقـوات الأمريكية التي تقف أمام الفندق, أن أكثر من مائة شخص من الغوغاء قد جاءوا من جهة الفندق وتحديداً من وسط تمركز القوات الأمريكية وهم يهجمون عـلى الدائرة الحكومية المقابلة للفندق والمحاذية لساحة الفردوس المطلة على الفندق ومعهم عدد من المصورين والصـحفيين, وقـد كسروا الأبـواب ودخلـوا كالأوبـاش ونهبوها والكاميرات تصورهم في محاولة لإيهام الرأي العام العالمي بأن هذه هي أخلاق الشعب العراقي، لتشويه صورته والانتقام من تصـديه البطـولي, وتشـويه صورة العرب والمسلمين في العالم، ولكن حبل الكذب قصير، وسيرى الذين ظلمـوا أي منقلـب ينقلبـون. كـما رأيـت بـنفسي كيـف أن الأمريكـان كـانوا يحرسـون وزارة الـــنفط في بغـــداد ومؤسســـاتها, وكـــذلك كنيســـة في الكـــرادة, ولكـــنهم تركوا السفارة الألمانية عرضة للنهـب وكـذا الروسـية والفرنسـية، إنهـا مفارقـات

وعجائب وصور بربرية لأعظم حضارة تدّعيها أمريكا. إنهم يدعون تحرير شعب العراق ولعابهم يسيل على نفطه، حيث إن أهم ما قاموا به في الجنوب والشمال هو الاستيلاء على 600 بئر بين البصرة والناصرية وهـي حقـول الرميلـة ومجنـون و400 بئر في كركوك والموصل، أما البلد وبنيته التحتية ونظامه ودولتـه فلتـذهب إلى الجحيم، هؤلاء هم أصحاب الحضارة الحالية ودعاة العولمة والمدافعون عـن حقوق الإنسان والحرية والديمقراطية. هذه هي الصـورة القريبـة مـن الحقيقـة المرّة التي عاشها العراق بعد الغزو البربري وأحـداث السـلب والنهـب المتعمـدة والمنظمة، إننا لا ندعي أن العراقيين كلهم صالحون وأولياء وليس فـيهم سرّاق أو مجرمون، لكن السلب والنهب في عفويته وحجمه الطبيعـي لا يـدمّر بلـدا كبـيرا كالعراق, كما إن السيطرة عليـه أمـر سـهل، ولكـن التخريـب والتـدمير المتعمـد وتعبيد الطرق للسرّاق والغوغاء هو الذي حدث بالفعل كما رأينا شـهود العيـان يتحدثون عن تلك الجـرائم, ورأينـا بأعيننـا أن معظـم السرقـات كانـت منظمـة وليسـت عشـوائية, وان السرّاق كـانوا يعرفـون مـا يسرقـون ومـا يـدعون, كـما أنهـم يعرفـون مـا يحرقـون مـن كتـب وأوراق ووثـائق ومخـازن ودوائـر, وهـم مجهـزون بعـدد ومـواد حارقـة خاصـة لـلإسراع بعمليـة الحـرق والتـدمير فضـلا عن النهب والسرقة, ولقد كان الموقف الأمريكي الذي آثر أن يـترك البلـد بـدون حكومة أو نظام بحجـة أن العـراقيين هـم الـذين يجـب أن يختـاروا حكـومتهم

ونظامهم هو حق أريد به باطل, لأن ذلك هو الذي فسح المجال للسلب والنهب وسيدمر ما تبقى من البنية التحتية والأمن والسلام في البلد إذا لم يتم السيطرة على الأمور الخدمية والأمنية من قبل جهة مركزية وهم يعلمون تلك البديهية ولكنهم تعمدوا اهمالها. إن تدمير البنية التحتية والتوثيقية والحضارية للعراق قد جعلت هذه الحرب هي خط الشروع بين عهدين بين عراق الأمس وبين عراق اليوم الذي يراد له أن يصنع كما يريده الأعداء، وإن هذه الحرب قد ألغت وأنهت أو تحاول أن تلغي كل أثر لما قبلها، وكأن البلد قد بدأ الآن وبخط شروع جديد لبناء دولة جديدة من الصفر، فلا حقوق ولا وثائق ولا ثوابت ولا دلائل تاريخية وحضارية لما كان وما سيكون ولا إثبات لأي حق أو عمل أو بناء أو هدم لمرحلة ما قبل الحرب، إنها خطة إبليس اللعين الذي مس وتربع في عقول هؤلاء المحتلين مع أعوانهم من الصهاينة والمتصهينين في أمريكا وإنكلترا وبقية الدول التي سمح لها ضميرها المشاركة في غدر العراق وتدمير حضارته.

ولقد قاوم العراقيون الشرفاء تلك الأعمال المشينة والجرائم التي أحاطت بالبلد كالطوفان، وأصدر علماء السنة والشيعة الفتاوى بتحريمها, وتم عمل لجان حماية مسلحة لردعها وإعادة المسروقات والأموال العامة إلى الجوامع والحسينيات، وقام الشباب المخلص لوطنه ودينه بحماية ما تبقى من الموجودات في المواقع الحكومية.

وفي المتحف كان أحد المتطوعين يحمي المتحف بعصا, وطلب أن نوفر له سلاحا وأفرادا، فقلت له لا أجد لكم سلاحاً، فقال: إذا استطعت أن توصلني إلى منزلي فإني أستطيع أن أجلب سلاحاً خفيفاً (بندقية), وكانت المواصلات صعبة جدا في هذا الوقت العصيب, فأخذته إلى ساحة بيروت (شارع فلسطين) وجلبنا البندقية وعدنا إلى المتحف، وقال -وكان اسمه محمد – لقد طردت ثلاث لوريات من السرّاق بعصاي هذه، فقلت له بارك الله في أمثالك من المخلصين للبلد، وقبل أن نغادر المتحف جاءت مجموعة من الصحفيين البريطانيين إلى المتحف وتحدثنا معهم ووصفنا لهم كيف أن سرقة المتحف والبنك المركزي والجامعات كانت برعاية وموافقة القوات المحتلة، وكيف أنهم وفروا حماية لوزارة النفط ولم يوفروا حماية للمتحف وغيره من المواقع المهمة في العراق، فتأسف ذلك الصحفي البريطاني نيابة عن حكومته التي لطخت نفسها بهذه الجرائم ولم تراعِ القانون الدولي والشرعية الدولية, وودعنا الجميع ورحلنا ثم عرّجنا على فندق فلسطين مريديان حيث المدرعات الأمريكية تحيط بفنائه الأمامي, وذلك للقيام بإيصال صوتنا والنداء الذي حررناه في بيت د. وميض إلى الصحفيين وإلى الفضائيات، وقد قام الأخ ظافر بتلك المهمة، فأوصلته إلى هذا المكان الكريه على قلبي لوجود قادة التحالف فيه.. وقفلت راجعاً إلى بيتي بعد الاشتراك في مظاهرة عراقية أمام الفندق.. ثم استأنفت تجوالي في

بغداد العريقة التي دمرها مغول العصر بمباركة وتسهيل العرب والمنافقين ممن وضعوا أيديهم بأيدي تجار الحروب وقتلة الهنود الحمر لكي يضمنوا السيطرة على أمريكا ثم العالم بعد حين. فكانت جولات الاثنين والثلاثاء والأربعاء لا تقل مأساة وفجاعة عما رأيت خلال أسابيع الحرب أو أيام السلب والنهب والتدمير من هول الموت والقتل والتدمير والدجل وتشويه الحقيقة وإنا لله وإنا إليه راجعون.

لقد كان نهب مستشفى الكندي في ساحة النهضة ومستشفى البلدي ومستشفى حماد شهاب في بداية الأسبوع الرابع للحرب. ولقد تم حرق الدوائر المهمة في الدولة كالجيش ومراكز الشرطة والمرور في بغداد بعد نهبها كما ذكرنا. وفي يوم الاثنين 14/ 4 شاهدت القوات الأمريكية تحمي إحدى الكنائس الكبيرة قرب ساحة كهرمانة في الكرادة في حين كانت المتاحف والمكتبات والوزارات والجوامع والدوائر العامة الرئيسية بدون حماية حتى نهاية الأسبوع، حيث بدأت قوات التحالف تنتشر في بغداد بعد الجمعة. 4/18 وما بعدها من الأسبوع الخامس.

إن أهم الفئات التي قامت بالسلب والنهب كما يرى شهود العيان والمحللون هي:

1- الغوغاء والسرّاق والمجرمون من العراقيين والعرب وقوات التحالف الأمريكي البريطاني وغيرهم.

2- قسم من المتضررين والحاقدين على نظام صدام والحزب الحاكم والمبعدين عن مراكز القوة والسلطة خلال حكم حزب البعث.

3- جماعات من السياسيين الموالين لإيران والذين يرون إنهم بحاجة إلى أموال لتمويل عملهم السياسي المقبل, وقد قام بعض هؤلاء بنقل الأموال والتحف التي تم سرقتها ونهبها إلى إيران لغرض بيعها وتحويلها إلى مال ونقد كما سمعت من بعض الرواة والله أعلم.

4- قسم من البعثيين الذين يتوقعون أن يكون لهم دور مهم في العمل السري المقبل وبناء الحزب من جديد, وربما يكون هؤلاء قد استغلوا مواقعهم السابقة في السلطة والأسرار التي كانت تحت أيديهم لكي يصلوا إلى كثير من الأموال العامة التي لا يمكن لغيرهم أن يصلوا إليها والله أعلم.

5- عناصر عميلة ومخربة موالية لإسرائيل وقوات الاحتلال, يعملون بإمرتهم للتخريب والتدمير المتعمد ولإشاعة الفوضى وحرق الوثائق والكتب والتراث العراقي لتحقيق أهداف سياسية أمريكية وصهيونية لتوجيه مستقبل العراق لما يخدم مصالحهم وخططهم.

6- عناصر عميلة لإطراف عربية وكردية وتركية لتحقيق أهداف محددة داخل العراق, أو البحث عن أسرار معينة أخرى.

مصير صدام بعد سقوط نظامه

اختفى صدام نهائياً يوم الجمعة 11/ 4 وهناك عدة افتراضات حول مصيره, فمن الممكن أن يكون قد قتل أو جرح أثناء القصف العتيف في الأعظمية أو المنصور أو في أنفاق القصر الجمهوري السرية, ومن الممكن أن تكون قوات التحالف قامت بتحديد مكانه وقتله وانتشاله دون أن تكشف هذه العملية, ولكي تحكم الطبخة الإعلامية بعد أن انفردت بالإعلام حول نهاية الحرب ومنعت الإعلام المحايد من متابعة الأحداث بعد يوم الثلاثاء 8/ 4, لكي تدفن سره وأسرار الحرب وأسرار الحصار وأسرار حرب الكويت وحرب إيران التي كانت أمريكا طرفا رئيسيا فيها ومحرّضا عليها, ومن الممكن أيضا وهو الأقل احتمالا أن يكون صدام قد اختفى في مكان سري كان قد أعده سلفا إذا ما اضطر إليه، وسيكشف المستقبل القريب والبعيد عن ذلك، وربما يبقى مصير صدام لغزاً محيراً أيضاً كما بقي مصير هتلر لغزا محيرا منذ الحرب العالمية الثانية حتى الآن، وأن المستفيد من بقاء اللغزين دون كشف النقاب عنها في الحالتين هي أمريكا والصهيونية العالمية، بسبب التداعيات الخطيرة والجسيمة التي حدثت بعد هتلر، والتداعيات الأكبر ضخامة المتوقعة بعد هزيمة صدام واختفائه، فان عصر ما بعد صدام مرسوم له أن يكون عصر أمركة العالم وإرهابه بالقوة الغاشمة الأمريكية، وزوال أي خطر

محتمل على الأمن الإسرائيلي، وتهميش دور الأمم المتحدة أو إلغائها، وفتح الباب على مصراعيه للعولمة والتأسيس العملي للنظام العالمي الجديد. الذي يقوده القطب الأوحد في العالم ممثلا بالولايات المتحدة الأمريكية.

حدثني أحد شهود العيان الثقات أنه كان في ساحة الفردوس مقابل فندق فلسطين مريديان يوم سقوط صدام الأربعاء 4/9, حينما تم إسقاط تمثال صدام في وسط الساحة ظهر ذلك اليوم بسحبه من رقبته بحبل بواسطة مدرعة أمريكية ثم قيام الجموع الغاضبة بتكسيره إلى قطع عديدة, وقد حاول بعض هؤلاء إهانة صدام من خلال ركله بالقدم أو المشي عليه, وقد حاول الإعلام الأمريكي أن يجعل من ذلك المشهد الدرامي ومن سقوط التمثال وتصوير ذلك الحدث وبثه ثم تكرار عرضه في الفضائيات رمزاً لسقوط نظام صدام معنوياً, وتدمير ما تبقى من الروح المعنوية والأمل المتضائل لأعوان النظام ومؤيدي الرئيس العراقي, وإن يصدموهم برسالة مفتوحة حادة وواضحة المعنى, أن لا أمل لكم بعودة صدام ونظامه إلى الحياة, وإسدال الستار على مسرح العهد الصدامي وإلى الأبد, وقد أستلم العرب الرسالة فوراً ثم تبعهم العراقيون تدريجياً يوماً بعد يوم. لكنني في هذه الرواية لم أكن أقصد من عرض تلك الصورة التراجيدية المفاجئة التي مزقت قلوب الكثير من العراقيين بغض النظر عن موقفهم من صدام ونظامه, فهم قد عاشوا عهد صدام

وألفوه بكل سلبياته وإيجابياته، ولكنهم يقفون اليوم على أعتاب غد مجهول الهوية ولم يتضح منه سوى وجه الاحتلال والتبعية وفقدان السيادة والاستقلال, أما الوجوه الأخرى فستبقى من الأسرار التي ستكشف للناس تباعاً, يتجرعون ويلاتها الواحدة تلو الأخرى، إنه الخوف من المجهول ومن الفوضى وانعدام الأمن والنظام واستيقاظ الفتن وما أكثرها في العراق, وما ينتظره من محن واختبارات في حياة الحرية التي لم يألفها منذ عقود عديدة، إذا ما أحسنا الظن بالحرية والتحرير الذي وعد به الأمريكان. بقي أن أقول إنني قصدت باستعراض هذه الحادثة المروية من قبل ذلك الشاهد في تلك الساعة، إنه شاهد فيما شاهد أن جندياً أمريكيا تقدم إلى التمثال المتهشم وذهب إلى رأسه وقبّله وهو يقول: إن صدام حسين هو الوحيد الذي تحدى أمريكا وقال لها (كلا) في العالم كله. ترى ماذا تعبر تلك الصورة، هل هي تشير إلى طغيان أمريكا وغطرستها ورعب العالم منها، أم إنها تدل على شجاعة هذا الرجل الذي قتله عناده واستبداده حتى مع من يريد إنقاذه، أم هي رسالة إلى الشعب الذي أنجب هذا التحدي الفريد وقال لا لأمريكا.

لقد أجرى لسان الحال العراقي المجروح والمحبط من أثر الحرب المدمرة لقاءً اعتبارياً مع القائد المنهزم صدام حسين, وكان الحوار التالي:-

لسان الحال: ما هو السبب الرئيسي للهزيمة؟

صدام: بطانة السوء, والحزب وقيادة الجيش والحرس فإنهم لم يقاتلوا في بغداد بعد ضرب المطار وقنوات الإعلام بوحشية.

لسان الحال: لماذا اخترت الحكم الدكتاتوري لحكم العراق؟

صدام: ليس من السهل أن أحكم شعباً متمرداً مثل شعب العراق, فهم الذين قتلوا الملك وعائلته ووزراءه وسحلوهم في شوارع بغداد, ثم قتلوا عبد الكريم قاسم وأعوانه بدون محاكمة وبطريقة بشعة, وهو الذي أنقذهم من الحكم الملكي الموالي للإنكليز, وهم قديماً الذين قتلوا عمر وعثمان وعلياً والحسين وزيداً والأمين وكثيراً من قادتهم في ساعات التمرد والعصيان, فكان لابد من الحكم المطلق الفردي لفرض السيطرة وقيادة هذه الجموع والتيارات المتنوعة والمشارب المختلفة.

لسان الحال: لماذا قررت أمريكا والصهيونية إسقاطك؟

صدام: رغم أني شأن العديد من الحكام جئت إلى الحكم بقطار أمريكي وعدم معارضة بريطانية وصهيونية, إلا أنني بعد غدر أمريكا وإسرائيل في حرب الكويت, قررت التمرد عليهم ومحاربة اليهود ودعم الانتفاضة الفلسطينية, وجعلت قضية القدس وفلسطين محور عملي السياسي, وأنشأت جيش القدس وقمت بإسناد وتعويض الاستشهاديين والمجاهدين في فلسطين, وأظن أن القدس كانت السبب الرئيس في سقوطي كما كانت سبب مقتل الملك فيصل بن عبد العزيز عام 1975م.

لسان الحال: إذا كنت على قيد الحياة, بم تتهم الأمريكان بشأن العراق؟

صدام: أتهمهم بالآتي:-

1. إن حربهم ليست شرعية ولا قانونية وسيدفعون ثمن ذلك غالياً في المستقبل ليس للعراق فحسب وإنما للعالم أجمع.

2. إنهم يعرفون أني لا أملك سلاح تدمير شامل لأنهم هم الذين جهزوني به لأضرب الإيرانيين والأكراد, وهم الذين دمروه بالكامل على يد لجان التفتيش الذين كانوا جواسيس لهم إلا قلة منهم لا يزيدون على 20% وقد استقال بعضهم لكي يفضحوا ستراتيجية التجسس, وستثبت الأيام أنهم استخدموا أسلحة تدمير شامل ومنها السلاح النووي لإسقاط العراق واغتيال دولته بشكل غير نظيف ولا شريف ولا يليق بأخلاق الغرب والدول العظمى.

3. إنهم سرقوا حضارة العراق وتراثه ومتاحفه ودمّروا دولتي وأحرقوها انتقاماً من الشعب الذي واجههم ولم يسمح لهم باحتلال الأرض، وكانوا صفاً واحداً طوال أسبوعين من القتال البطولي حتى جاءت ساعة الغدر والخيانة والترويع لاحتلال عروس المدن بغداد.

4. إنهم كذبوا على العالم وتحولوا - كما قلت مراراً- من محررين ومدافعين عن الشرعية والحرية والتعددية إلى غزاة محتلين ولصوص وقراصنة نفط في نظامهم الدولي الجديد وعولمتهم بغية الهيمنة على العالم.

لسان الحال: هل ستعود لحكم العراق من جديد؟

صدام: لا.. لن أعود, فقد انتهى دوري وقدري في حكم العراق, ولكن بعد ثلاث سنين في المدى القصير وثلاثين سنة في المدى الطويل, سيتمنى العراقيون عودتي ويدركون فوائد حكمي رغم سيئاته, ولكن حينها لا ينفع الندم, فسيكون العراق العظيم قد عاد من حيث بدأ جنة الطامعين والمستعمرين, ويكون الفساد قد استشرى حتى يفيض على الجيران الأوفياء, ويكون النفوذ الأمريكي الصهيوني قد جاوز المعقول, وتكون الهوية قد ضاعت إلا ما شاء الله.

لسان الحال: بماذا تنصح العراقيين؟

صدام: أنصح أشرارهم أن تمسك الهراوة الأمريكية وتضرب بها أشرار العرب والعجم. وأنصح شرفاءهم أن لا يثقوا بأهل النفاق وأصحاب الشهوات والمصالح, كما وثقت بهم فهويت في مكان سحيق, وأن يعتمدوا أهل الخبرة والأمانة لإعادة بناء عراقنا الحبيب. كما أوصانا رب العزة بأن خير من استأجرت القوي الأمين. فلم أجد في بطانتي وحزبي وأعواني في ساعة العسرة ذلك القوي الأمين, فضاع العراق وضاع حلمي الجميل وسط صخب بني صهيون ومخططهم الإجرامي الكبير.

لسان الحال: ماذا تتمنى لو فرضنا جدلاً أنك عدت لحكم العراق؟

صدام: ليتني كنت أعلم الغيب وما سيحصل لي بعد 20/ 3، لتبت إلى اللـه توبة نصوحة من الظلم والطغيان والاستعباد الـذي مارسته عـلى شـعبي، وأن أحكـم بالعدل الذي هو أساس الملك حقاً, وأن أسعى للصلح مع اللـه والمؤمنين والبراءة من الكفار والمنافقين وبطانة السوء التي أهلكتني وقضت على ملكي، وكأنها داء الأرضة والسوس الذي يدمّر كل شيء بخفـاء ومـع مـرور السـنين. وحينها كنـت سأموت مرتاحاً، وتكون هزيمتـي نصراً في ميـزان اللـه والصـالحين، وأكـون قـد خدمت أمتي بحق، ونصحت لأئمة المسلمين من الحكام والأمراء ولعامتهم مـن المخلصين، وكنت قد رسمت طريق النجاة لبلدي وشعبي ولـو بعـد حـين، ولكـن حب الرئاسة والسلطة والجاه قد منعني حتى آخر لحظة من الوقـوف في صـف الإيمان والثقة بصالح المؤمنين، فجرّعني أعـواني مـرّ الهزيمـة والخسـارة في الـدنيا والآخـرة وخسرت سـلطاني وسـمعتي وورثـت الندامـة وشـماتة الأعـداء وضـياع العراق من يدي وإلى الأبد.

الجندي الأمريكي في بغداد

لم يـر المـواطن العراقـي الجنـدي الأمـريكي مـن قبـل ولا يـود أن يـراه عـلى أرض العـرب والمسلمين فضلاً عن العراق, لان ذلك يذكره بعهود الاستعمار والتبعية حينما جاء الجنود الإنكليـز والفرنسـيون إلى أرض العـرب لاحتلالهـا مـع مطلـع القـرن المـاضي, إثـر الحـرب

العالمية الأولى وسقوط الخلافة العثمانية التي كانت تجمع المسلمين في دولة واحدة رغم السلبيات التي رافقتها والتخلف الإداري الذي صبغ الحقبة الأخيرة من عهدها الطويل الذي دام خمسة قرون.

وحينما انتشرت القوات الأمريكية في بغداد بعد يوم الجمعة 11/ 4 بدروعهم ودباباتهم، كان ذلك منظرا مؤلما لنا، حيث أصبحت صورة الاحتلال واقعاً ولم تعد خيالا، ولم يترجل الأمريكان إلا بعد أن انتهت أعمال السلب والنهب والفرهود التي دامت أسبوعا كاملا تحت أنظارهم وربما بتشجيعهم، وبعد أن اتخذوا مواقع رئيسية حول بغداد في أبي غريب والمطار ومعسكر الرشيد وملعب الشعب الدولي والنهروان والراشدية والجزيرة السياحية والتاجي وكلية بغداد ومعظم القصور الرئاسية والقصر الجمهوري والمواقع الحكومية الحصينة الأخرى, ولقد استفاد الأمريكان من هذه المواقع الحصينة الكثيرة التي بناها صدام لتحصين نظامه فأصبحت - للأسف- مواقع لتحصين المحتلين، مما أعاق العمليات الفدائية التي كان من المتوقع أن يقوم بها العراقيون في بغداد فيما عدا نشاطات محدودة ومتفرقة قام بها بعض المتحمسين في أحياء بغداد وشوارعها خلال مرور الأمريكان فيها.

لقد كنت أتوقع صورة الجندي الأمريكي أن تكون أقرب إلى صورة المستعمر الهمجي الذي يقتل دون سبب، ولكني فوجئت بجنود شباب في عمر العشرينات مدججين بسلاح, يبدو كأنه ليس جزءً من

تكوينهم, فهم إلى الترف والميوعة أقرب من الجندية والعسكرية والقتل والترهيب، كما أنني شاهدت وكأنهم خجلون من دور الإرهابي المرتزق الذي وضعتهم حكومتهم الباغية فيه. ورغم أنني لم أكن أرغب في الاقتراب منهم أو أتحدث إليهم لأنهم جاءوا لاحتلال بلدي بحجج واهية ومنطق غير سليم وبدون أي شرعية دولية أو أخلاقية، إلا أنني شاهدت منظرين في بغداد تدللان على خجل هؤلاء الجنود وشعورهم بأنهم لا يمثلون دورهم الذي يتمنون كجزء من شعب في مقدمة شعوب الأرض حضارةً وتقدماً, شعب يقدس الحرية والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان، فكيف به ينسف كل هذه المثل ويدّمر تلك المبادئ بوسواس من الشيطان والأطماع وتوجيه من الصهيونية في أمريكا وإسرائيل, لقد كان المنظر الأول يوم الهجوم على الأعظمية في يوم الخميس 10/ 4 وأثناء المطاردة بين القوات الأمريكية ودروعها وبين الفدائيين، حيث توقع أحد قادة الدروع أنه قد اختبأ فدائي في أحد البيوت القديمة في حي السفينة، فقذف البيت بقذيفة حارقة فاحترق البيت, فنزل أحد الجنود ودفع الباب فإذا مجموعة من الأطفال والنساء يصطرخون داخل المنزل فقال:no, no, no، فغير الجندي الآخر رأس القاذفة بكبسولة أخرى وقذف البيت بقذيفة كاربونية فأطفأ النار وذهبوا إلى مكان آخر للبحث عن الفدائيين.

وحادثة أخرى مع طفلة عراقية صغيرة عمرها ثمان سنوات تسكن في شقة، وقد هرعت تريد النزول من الشقة بسبب كثافة القصف في أحد أحياء الأعظمية, وحين فتحت باب البناية وجدت أمامها جندياً أمريكياً يصوب سلاحه نحو البناية، فقالت له دون وعي وهي تعيش إرهابا ورعبا لم يتوقعه ذلك الأمريكي المتحضر من طفلة بهذا العمر, وهي تسأله تلقائيا وبلغة إنكليزية بسيطة:

How are you?، فقال لأصحابه ولها: No, no, no.. لقد صدمته هذه الطفلة العراقية وأصابت حضارته بالصميم، وهو يحاول أن يبرر لنفسه وشعبه ودولته: لا لا لا لسنا إرهابيين ولا قتلة لهؤلاء الأبرياء، إنما نحن نطبق الأوامر، تماما كما قالها ذلك الأسير الأمريكي المرعوب في الناصرية، إنها جريمة بوش وأعوانه بسبب سياسته الاستعمارية وشغفه بالاستحواذ على النفط، وليس جريمة الشعب الأمريكي المحب للسلام والعدل والحرية. لقد استغربت وأنا أشعر إن هؤلاء الجنود الأمريكان لم يكونوا إرهابيين أو على الأقل لا يريدون أن يكونوا كذلك، ولكن ذلك لا يعفيهم من مسؤولية الاحتلال والعدوان على شعبنا الآمن ولا من دفع الثمن الباهظ إذا لم يسارعوا بالخروج من البلد والعودة من حيث أتوا، وستثبت الأيام المقبلة ندم الغزاة على فعلهم هذا، والله بالمرصاد لكل ظالم متجبّر ومعتدٍ أثيم.

الورقة الطائفية والعرقية

استمرت أعمال السلب والنهب في بغـداد خمسـة أيـام، وتوقفـت أو خفـت كثيرا اليـوم الأربعـاء 4/16، بـل إن جهـود المخلصـين وفتـاوى العلـماء السـنة والشـيعة واللجـان الشـعبية المسـلحة في المسـاجد والحسـينيات اسـتطاعت أن تبلـور حركـة معاكسة لأعمال الفرهود شكلت ظاهرة نبيلة وطيبة تنسجم والـروح الخـيرة التـي امتاز بها الشعب العراقي بكل صـنوفه، حيـث بـدأت السـيارات تعيـد الكثـير مـن المسروقات من الأموال العامة إلى المساجد والحسينيات. وكان الكثير ممـن ضـعف أو دفعـه التنـافس عـلى النهـب والسرقـة باعتبـار أن أمـوال الدولـة سـتذهب إلى الصعاليك والمجرمين وهم أولى بها, قد تنبهـوا وعـادوا إلى الصـواب، ولمـا علمـوا أن ذلك التخريب محرم شرعاً اعتذر البعض بأنه أخذ هذه الأجهزة والمعدات والأموال أمانة عنده للمحافظة عليها لعدم وجود هيكل الدولة أو من ينوب عنها، والـبعض الآخر تم إرجاعه بالقوة عن طريق رجال الحماية أو تحت ضغط الجيران. أو نصـح الناصحين الشرفاء.

وهذه الظاهرة تشير إلى صحوة ووعي متزايد بالمؤامرة المدبرة, وشجب للدور المشبوه الذي قام به الأمريكان وحلفاؤهم لتشجيع هذا المسلك الشاذ، فضلاً عن تراجع مشـاعر الإحبـاط واليأس ورد الفعل ضد الظلـم الـذي وقـع عـلى النـاس بسـبب العـدوان واسـتبداد النظـام

الحاكم طوال الحقبة الماضية, وعودة الوعي لكثير من هؤلاء المحبطين والناقمين على حكم صدام المتسلط.

فبعد تلك الحالة الهستيرية لأعمال الفرهود استفاق هؤلاء المهووسون على حقيقة مؤلمة مفادها أنهم بذلك يدمّرون أنفسهم وحياتهم وعالمهم الجميل وعراقهم المكلوم فعادوا إلى توبة نصوح وهجر لأعمال التخريب والنهب.

وبتوقف هذه الحملة المسعورة وهذه الفوضى المدمرة، صفا الجو في البلد وعاد الأمن والأمان من آثار ذلك المرض المفاجئ الذي أصيب به البعض. ولكن الناس الآن يتوجسون مما هو أخطر وأعظم من ذلك المرض الوقتي الهستيري القصير العمر.. تلك هي الفتنة الطائفية والعرقية والاقتتال بين الطوائف والمذاهب والأعراق، في بلد اشتهر بكثرة مذاهبه وأعراقه، وهم يرون أن هؤلاء الطامعين يتمنون أن تشتعل تلك النار التي لا يعلم أحد إلا الله متى تنطفئ إذا ما أوقد شررها، فكانوا في كامل وعيهم وحذرهم من الورقة الطائفية ومؤامرة (لبننة العراق) التي طالما تحدث عنها الإعلام الغربي والصهيوني، فشمر علماء السنة والشيعة عن سواعدهم لنزع أي فتيل محتمل لهذه الفتنة الخطيرة. وتبدو بوادر الوحدة والوعي والسلام والتكاتف هي الغالبة على لسان كل القوى والفئات والشخصيات البارزة على الساحة العراقية.

لقد حاول الأعداء الدخول إلى الفتنة الطائفية وإشعال فتيلها من عدة سبل، منها الربط بين حالة السلب والنهب وبين الطائفية، فقالوا إن صدام السني قد ظلم الشيعة, ولذلك قام الشيعة في حي الثورة بمعظم أعمال الشغب والسلب والنهب بعد سقوط النظام. وحاولوا أن يبثوا بين السنة أن السرّاق هم من الشيعة في الغالب للاستئثار بموارد الدولة لمحاربة السنة اقتصاديا, وبثوا في الأوساط الشيعية أن الذين يشكلون الخطر الأول عليهم هم السنة ممثلين بفئة الوهابية، وتحفز بعض الشيعة من خطر ما يسمى بالوهابية, رغم أنهم - في حالة وجودهم في الوسط السني - لا يشكلون نسبة تذكر, وليس لهم دور أو أثر بارز داخل الوسط السني, وهم أتباع مدرسة النص التي أسسها وقادها الإمام أحمد بن حنبل وابن تيمية، فالسنة في العراق في غالبيتهم أحناف وشوافع, ولكن الأعداء يريدون إشعال الفتنة بكل السبل. لقد حاول الأعداء بث الفتنة والاقتتال بين الشيعة أنفسهم أيضا، لاسيما في النجف الأشرف، مفتعلين صراعا دمويا حول المرجعية بعد سماحهم بدخول السيد عبد المجيد الخوئي ثم اغتياله بعد مدة وجيزة من دخوله النجف، إذ أنه اغتيل يوم الخميس الماضي 4/10 كما علمت من وكالات الأنباء. ثم تطور الموقف إلى محاصرة أحد كبار مراجع الحوزة العلمية في النجف وهو العلامة (السيد علي السستاني) وإنذاره بالخروج من النجف، ثم قيام أتباعه في النجف ومن أبناء العشائر بالدفاع عنه, وقيام تظاهرات كبيرة

لأتباعه في الخليج لفك الحصار عنه, والدعوة لوحدة المرجعية، وإصدار فتاوى ونـداءات عديدة من علماء النجف للعمل على مصالحة الأطراف المتنازعـة وإلى وحـدة المرجعيـة العلمية في النجف، كل تلك الأمور تنذر باحتمال تفجر الموقف وإثارة الورقـة الطائفيـة سواء داخل الطائفة الشيعية أو بين السنة والشيعة، ولكن اللـه سبحانه أقـوى وأرحـم من أمريكا والصهيونية التي تحاول أن تدير الأمـور مـن وراء الكـواليس، كـما أن نجابـة الشعب العراقـي وعراقتـه وخبرتـه في مواجهـة الأزمـات والفـتن ستفوت الفرصـة عـلى الأعداء لإشعال الفتن الطائفية والعرقية بئذن اللـه تعالى, وقد شهدت الأيام التـي تلـت تلك الظروف الحرجة أن روح الوحدة والتلاحم بين السنة والشيعة التي ترجمت بشكل لقاءات واتفاقات وفتاوى مشتركة كانت أقوى من الصخر, وقد كانـت تلـك الـروح هـي الضمانة الحقيقية لمواجهة كل الفتن والأزمات التي قد تعترض طريق البناء الجديد.

أما الشطر الثاني لهذه الورقة وهي العرقيـة وفتنـة القوميـات والطوائـف الدينيـة، فنحن نعلم أن شـعب العـراق مكـون مـن شـيعة وسـنة وعـرب وأكـراد وتـركمان، ومسلمين ومسيحيين ولكنهم كلهم يجمعهم حبهم لوطنهم واحترامهم للآخرين من الطوائف والمذاهب المتنوعـة، وإن الإيمـان والوسـطية والحكمـة والمصـالح العامـة والسـلام والوحـدة الوطنيـة هـي القواسـم المشـتركة والمبـادئ التـي تحكـم سـواد الشعب، ولكن الخطر قد يكمن في تـأخير قيـام حكومـة عراقيـة جديـدة لغايـة في

نفس من يريد الفتنة والاضطراب, ولكي ينضّجوا ما يريـدون مـن فـتن وتيـارات لإثـارة حرب أهلية طويلة الأمد بغية السيطرة على مقدرات الـبلاد وثرواتـه إلى عقـود طويلـة، وإغراق البلد في الفتن والأزمات والديون حتى يصبح أداة طيعة بأيـدهم, فهـم يؤمنـون بمبدأ فرّق تسد (الإنكليزي) أو مبدأ أعطيه الموت لكي يرضى بالحمى كما يقولون.

وإننا إذا ما أردنا أن لا نغالي في إساءة الظن بالأمريكان ونقول إن مصالحهم في المنطقـة لا تتفق ومنهجية إثارة الفتن والحرب الأهلية، فإننـا ننصحهم بضرورة الإسراع بتشـكيل حكومة وطنية والسماح للشعب العراقي بأن يضمد جراحه ويكـوّن دولتـه، باعتبـارهم هم المسؤولين الآن عن الأمن والنظام داخل البلد بعد ما تـم لهـم مـا أرادوا مـن فـرض سيطرتهم على البلد بعد إسقاط النظام.

لقد جاء الأمريكان لاحتلال بغداد من جهتي الجنوب والغرب ثم اخترقوا أسـوار بغـداد بعد معارك عديدة, ووصلوا إلى وسـط بغـداد في جانـب الكـرخ حيـث دخلـوا المنصـور واليرموك والحرية ثم توغلوا إلى الكاظمية والعطيفية, ومن هناك إلى جانب الرصـافة في باب الشرقي والأعظمية, ومن الجنوب توغلوا من معسكر الرشـيد إلى بغـداد الجديـدة والبلديات واحتلوا مديرية الأمن العامة. ثم من الشـمال واصـلوا تقـدمهم مـن التـاجي حتى بوابة بغداد فـالمحيط ثـم مركـز الاسـتخبارات في الكاظميـة. وفي يـوم الثلاثـاء 4/8 قاموا بـإنزال شـمال شرق بغـداد في منطقـة الراشـدية وعـلى السـدة في أطـراف مدينـة

الثورة، ثم تقدموا بسهولة نحو قناة الجيش ليصلوا سومر والبنوك ويلتقوا مع قواتهم القادمة من الراشدية والشعب، فدخلوا منطقة الصليخ، وبعد ذلك وصلوا آخر مرحلة من مراحل احتلال بغداد، حيث التقت قوات الجنوب والشمال والشرق والغرب في الأعظمية وباب المعظم، وحدثت معركة الأعظمية يوم الخميس, وقد قاومت الأعظمية ببسالة لسببين. أولهما وجود الفدائيين فيها وثانيهما وجود صدام مع رفاقه فيها في الأيام الأخيرة قبل سقوطه. وتعد منطقة الثورة ثاني آخر المناطق سقوطاً بالرغم من سعة مساحتها وكثافة عدد سكانها، ولم تقاتل مدينة الثورة المحتلين شأنها شأن الموصل وكركوك وبعقوبة والرمادي وتكريت، لأن هذه المدن شعرت بعدم جدوى القتال بعد سقوط العاصمة، كما أن هناك مبررات أخرى لعدم قتال الثورة للمحتلين، من بينها أن دخول قوات التحالف إليها جاء بعد دخول عدد كبير من المعارضة إلى مدن الجنوب, مما أحدث بلبلة في مسألة التمييز بين مقاتلة الغزاة والدفاع عن النظام, لاسيما في النجف وكربلاء، وقد استطاع بعض المعارضين للنظام تحييد الشيعة في قتالهم مع صدام، وهذا الموقف كان له الأثر البالغ في تغيير موقف العشائر في الجنوب والشيعة في بغداد، وهناك سبب آخر هو أثر الصدمة والترويع والحرب النفسية التي مارسها التحالف عن العراقيين بمختلف فئاتهم, وكان نصيب الثورة من ذلك كبيراً نظراً لكثرة الهاربين من جحيم القصف المعادي إلى خارج بغداد,

لاسيما من طريق بعقوبة بغداد القريب من ديارهم, وهكذا قرر سكان الثورة مهادنة المحتلين بعدما رأوا نظام صدام يترنح، علما بأنهم لم يكونوا يحبون النظام ولا يؤيدونه أصلاً، وإنما كانوا مكرهين على مجاراته كما يعلم الجميع. إن ذلك ليس دفاعا عن الثورة وأهلها وعن أصالتهم ووطنيتهم التي لا تحتاج إلى دليل, وإنما هو عرض للواقع وما حدث بالفعل في تلك الأيام القاسية، أما ما قيل من أنهم كانوا وراء حملة السلب والنهب, وأن النسبة الغالبة كانت منهم من بين أهل بغداد، ففي ذلك نظر أيضا، حيث أن الكثافة السكانية في مدينة الثورة هي الأعلى من أي منطقة أخرى في بغداد، وأن كثرة المشاركين في السلب تخضع إلى النسبة والتناسب, كما إنهم الفئة من سكان بغداد التي يكثر فيها العمال والموظفون من ذوي الدخل المحدود، وقد قال الإمام علي ﷺ لو كان الفقر رجلا لقتلته، كما إن انتماءهم المذهبي الذي يغلب عليه التشيع وموقفهم المعادي للنظام, والضرر الذي أصابهم من النظام طوال ثلاثين عاما جعلهم يتحينون الفرصة للإيقاع به والانتقام منه في أية فرصة تتاح لهم. مع كل ذلك فقد وقف علماء الشيعة والسنة في الثورة موقفا صلبا ضد السلب والنهب, وأفتوا بإعادة المواد المسروقة وحراستها والمحافظة عليها، وقد امتثل أهالي الثورة لتلك الفتاوى، بل إني وجدت العديد منهم يتطوع لحراسة المتحف والمستشفيات والمدارس والجامعات، وعليه فإن عملية تشويه صورة أهالي الثورة لدى سكان بغداد هي في

الغالب تقع ضمن دائرة الأيادي الخفية التي تريد الإيقاع بين السنة والشيعة, واستغلال أحداث السلب والنهب والحرق والتدمير التي وسعوها وضخموها لكي تؤدي إلى الفتنة الطائفية.

أما بقية الفئات في بغداد كالأكراد مثلاً فليس أدل على وطنيتهم وتآخيهم مع إخوانهم العرب أن استشهد الكثير منهم للدفاع عن بغداد ضد الغزو الأجنبي, وإني أعرف اثنين منهم سقطوا شهداء في الأعظمية، ولا علاقة لهذه المواقف الوطنية النبيلة بالموقف الرسمي لحكام كردستان وتحالفهم مع قوات الاحتلال. وكذا الأمر بالنسبة للتركمان فهم في خندق واحد مع العرب والأكراد، ولا يختلف الأمر مع المسيحيين الذين استنكروا منذ البداية الحرب على العراق وعدم شرعيتها، فهم في معظمهم كاثوليك وأرثودوكس ولا يؤيدون الموقف البروتستانتي المتصهين في أمريكا وإنكلترا، وهم قبل ذلك عراقيون وطنيون غيورون على بلدهم، كما أن رفض البابا في روما للحرب ودعوته للسلام وإيقاف الحرب قد تكررت مرات عديدة أبان الحرب العدوانية على العراق.

أما بالنسبة للتعاون والتنسيق بين السنة والشيعة، فقد علمت أن هناك لقاءات بين علماء السنة والشيعة في بغداد وكربلاء والنجف, وإن هناك موقفاً موحداً إزاء الاحتلال, وإن كلا الطرفين واعٍ وحذر مما يدبر في الخفاء لتجيير الفتنة الطائفية لصالح الأعداء، وإنهم كانوا صفا واحدا في مواجهة المحتلين والدعوة لإنشاء حكومة وطنية

يكون أساسها الوحدة الوطنية والعدل والسلام، وربما تشهد الأيام المقبلة تفعيلاً أكثر لهذه الجهود الخيرة التي تدعو إلى الوحدة والتقريب ورص الصف في مواجهة كيد الأعداء, وقد حدثت اجتماعات عديدة في الأعظمية والثورة والكاظمية لتنسيق المواقف بين الطرفين حضرها علماء كبار من الفريقين خلال الأسبوع الرابع للحرب برئاسة الشيخ الشاعر وليد الأعظمي والشيخ إبراهيم منير المدرس. ولقد حدثني أحد الشيوخ في ديالى عن دخول قوات بدر الشيعية عدداً من المدن في ديالى، وكان تعاملهم بمنتهى الأدب والاحترام لإخوانهم السنة، وإنهم قد صلّوا صلاة الجماعة في أحد مساجد السنة، وحرصوا على حماية الأمن والنظام والمحافظة على الأموال والممتلكات العامة.

لقد كانت لي علاقات وطيدة مع مثقفي الشيعة وعلمائهم منذ السبعينات, وفي مقدمتهم جماعة الشيخ محمد مهدي الخالصي وجماعة المرحوم السيد محمد صادق الصدر وبعض أفراد حزب الدعوة.

واعتقد أن الخط الوحدوي التقريبي الذي يمكن أن يؤدي إلى الوحدة الإسلامية والتقريب القرآني المخلص هو الذي يعتمد مبادئ القرآن والسنة التي تعمق معاني الوحدة والسلام والتعايش البنّاء وتأصيل العلم الشرعي بعيداً عن اللغو والتعصب والخرافة، وتلك هي أهم الركائز التي اعتمدتها في مؤلفاتي ومقالاتي العديدة في هذا المجال.

ولقد كنت أنشر مقالاتي في الصحف والمجلات السنية والشيعية، فقد كتبت في مجلة المفكر الإسلامي والرأي والكوثر والفتوى وغيرها من الصحف والمجلات، ومن المقالات التي نشرتها في مجلة الكوثر النجفية مقال مؤتمر النجف ومقال عمر والحسين وجهان لمنهج إسلامي أصيل، وقد نشرت في مجلة المفكر الإسلامي عدة مقالات منها: الإعلام القرآني في ظل منهج التقريب والوحدة, ومقال: الصراع الصفوي العثماني وأثره في بلورة الطائفية, ومقال الأمة الوسط وغيرها. كما وفقني الله سبحانه خلال التسعينات في طبع كتب عديدة في موضوع الوحدة والتقريب بين المذاهب الإسلامية. ولقد كانت تلك الجهود جزءً من جهود عديدة قام بها عدد من العلماء والمفكرين السنة والشيعة في هذا الميدان لعلاج الطائفية. ولقد قام عدد من علماء الشيعة فضلا عن السنة بمراجعة بعض مؤلفاتي قبل وبعد طبعها، منهم على سبيل المثال: العلامة محمد باقر القرشي والسيد المرحوم محمد صادق الصدر والسيد حسين الصدر وغيرهم من العلماء الأجلاء. من ذلك نخلص إلى أن الطريق في العراق واسع ومفتوح للحوار والوفاق والوحدة والتقريب بإذن الله، وإن الظروف العصيبة التي يعيشها العراق اليوم ستجعل من منهج الوحدة والوفاق من ضرورات العمل الإسلامي العراقي لمرحلة ما بعد الحرب. وإن مستقبل العراق سيشرق على جيل يؤمن بالله ورسوله وبالوحدة والتقريب والوفاق على الأصول والمشتركات والمقاصد

الحسنة لكي نجعل من العراق رمزا للتنوع المثمر والتعايش البنّاء بين كافة مذاهبه وطوائفه وأعراقه، ويكون ذلك دافعا لنا لبناء بلدنا الحبيب من جديد بعد طرد المحتلين الطامعين والأعداء المتربصين, وسيحفظ الله العراق وأهله من كل سوء وشر وفتنة إن شاء الله.

إنه من الممكن جدا أن يتحالف السنة والشيعة في العراق لمقاومة الاحتلال تمهيدا لقيام حكم وطني يضم جميع فئات الشعب, إذا ما توفرت النوايا المخلصة والرغبة في تثبيت أركان وحدة الصف ووقوفه صفا واحدا ضد الأعداء، واتفق الجانبان على شروط التعايش البناء والتقريب القرآني الذي يدعو إلى الاتفاق على الأصول وتوسيع دائرة المشتركات واعتماد فقه المقاصد, واستيعاب المرحلة الحساسة والظرف العصيب الذي يعيشه البلد بعد الحرب وانهيار البُنى التحتية للدولة والنظام والأمن العام، والابتعاد عن الغلو والتشدد والتعصب الأعمى والتكفير للفريق الآخر.

إن المتعمق في متابعة أحوال الشعب العراقي وخصاله الأصيلة يرى بوضوح توفر تلك الصفات والنوايا الحسنة لكل فئات الشعب ومذاهبه وصنوفه, وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق, فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى, كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: إياكم والخصومة في الدين فإنها تحدث الشك وتورث النفاق, فمن الغلو والخصومة وعدم إنصاف إحدى دعامتي عصر النبوة (أهل البيت والصحابة) الاكتفاء بذكر فضائل طرف واحد ونسيان أفضال

الطرف الثاني، رغم علمنا ومعرفة الفريقين لما كان بين أهل البيت والصحابة من أواصر الأخوة والمحبة والجهاد المشترك والنسب والمصاهرة, حتى رأينا أن إمام البيت العلوي سيدنا علي ﷺ يسمي أولاده باسم أبي بكر وعمر وعثمان، ثم اقتدى به أولاده وأحفاده, وكان ثائرهم مدافعاً عن رسالة الإسلام والشورى, وحاكمهم يتوق أن يحكم بالكتاب والسنة والمحافظة على عرى الإسلام أن تنتقض مع الزمن، والتي هي سنة من سنن الله في الكون سواء عند المسلمين أو عند غيرهم، فبريق الثورات يبدأ بالخفوت مع الزمن ولكل حالة أسبابها، وهذا خلق الله ومشيئته وتقديره، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: لتنتقضن عرى الإسلام عروةً عروة كلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، أولهن نقضا الحكم وأخرهن الصلاة. ويقول الرسول ﷺ: بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء. ومن الصور المشرقة لجيل النبوة وتابعيهم, زواج عمر ﷺ من أم كلثوم بنت علي ﷺ وزواج علي ﷺ من أسماء بنت عميس زوجة أبي بكر الصديق وأم ولده محمد بن أبي بكر, وقد كان الإمام جعفر الصادق يردد دائماً مقولته الشهيرة في وجه من لا يعلم منزلة أبي بكر ﷺ: ولدني أبو بكر مرتين, في أشارة إلى أنه جده لأمه (أم فروة) وجدته (أسماء).

فليحاول كل فرد منا في هذا الظرف الصعب إزالة الغربة والظلمة عن عالمه ومحاربة الشيطان وأعوانه. ولا يكون ذلك إلا بترك الغلو

والخرافة والتعصب والعودة إلى الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح في صدر الإسلام، وأن نجتمع على ما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضا لما اختلفنا فيه. وحينها يمكن أن نحجم المسلك الطائفي الذي يريد أن يثيره الأعداء ويجيرونه لصالحهم، وجزى الله خيرا أخوتنا الزيدية حين رفعوا شعار الوحدة والتقريب منذ القرن الأول الهجري بقولهم: (جواز إمامة المفضول بوجود الفاضل). فحسموا الأمر وقبلوا خلافة الشيخين, وترفعوا عن ثقافة صفين التي جعلت المسلمين صفين، فقد كان المسلمون حينها كلهم صفا واحدا مع الإمام علي ﷺ والخليفة الشرعي واعتبروا معاوية باغيا عليه تنطبق عليه أحكام البغاة. فليس هناك مبرر لدى البعض أن يركزوا في إعلامهم حول الإمام علي, ويرفعوه إلى مصافّ الآلهة وينكروا فضل أقرانه وأصحابه من أصحاب الرسول ﷺ إن لم يجعلوهم فاسقين، فإياكم يا أخوة الإيمان أن تستعينوا بالخرافة والروايات المكذوبة لتجذير الغلو في الدين.. قال تعالى: [**قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق**]. (سورة المائدة/ 77)

لقد خرج أكثر من 250 ألف متظاهر في الأعظمية ببغداد في أول جمعة 4/18 بعد أن وضعت الحرب أوزارها, تدعو إلى رفض وشجب الغزو الأجنبي وقيام حكومة وطنية إسلامية, وقد رفعوا شعارات إسلامية وحدوية منها: (لا للاحتلال لا للعلمانية نعم للوحدة

الإسلامية) حاملين المصاحف والأعلام العراقية, وشعار (إخوان سنة وشيعة هـذا الـوطن ما نبيعه) وكان خطيب الجمعة لذلك اليوم الشيخ الـدكتور أحمـد الكبـيسي، وهـو مـن الشخصيات المعروفة ذات الشعبية الواسعة في الأوساط السنية والشيعية, نظـراً لعلمـه الواسع وأسلوبه المؤثر في البرامج الدينية التـي قـدمها في بغـداد والخلـيج, حيـث عـاش خلال السنين الأخيرة بعيدا عن بلده بسبب عدم تجاوب النظام مع أطروحاته الوسطية التي تدعو إلى الوحدة والتقريب بين المذاهب الإسلامية. ورغم أنه لم يكـن مـن تيـارات المعارضة العراقية في الخارج إلا أن مسارعته في العودة إلى بغـداد وتصـدره للخطابـة في أول جمعة في الأعظمية بعد سقوط نظام صـدام, قـد جعلـه يتبـوء مكانـاً بـارزاً كأحـد الشخصـيات الإسـلامية المـؤثرة في بغـداد في هـذا الظـرف الخطـير، ومـن الشخصـيات الإسلامية الأخرى التي كان لها حضور واضح في هذه التظاهرة الكبرى الشـاعر الإسـلامي وليد الأعظمي -وقد ألقى قصيدة حماسية مؤثرة- والشيخ مؤيد إبراهيم الأعظمي إمام وخطيب جامع أبي حنيفة والشيخ إبراهيم منير المدرس والشيخ إبراهيم طه وجمع كبير من العلماء والمفكرين والشباب والطلبة وغـيرهم مـن منـاطق بغـداد والمـدن العراقيـة الأخرى.

إن العراقيين سيواجهون في مرحلة ما بعـد الحـرب العدوانيـة, وربمـا لسـنين طويلة ثلاث مشاكل كبـيرة تحـاول كـل واحـدة منهـا أن تفتـك بهـم وتشـل حـركتهم وقــدرتهم في إعــادة بنــاء وطــنهم ودولــتهم مــن جديــد, إذا

لم يتسلحوا بسلاح الإيمان ووحدة الصف والعمل المخلص الدؤوب، تلك هي معضلة الاحتلال الأجنبي ومشكلة النفوذ الصهيوني الجديد المتعدد الصور السياسية والاقتصادية والإعلامية والاجتماعية، وأخيرا الورقة الطائفية والعرقية التي يمكن أن تفتك بالشعب العراقي وتنخره من الداخل إذا ما استطاع الأعداء أن يُدخلوه في نفق الحرب الأهلية ومستنقع التناحر الديني والمذهبي والعرقي نظرا لتنوع وتعدد الطوائف والمذاهب والأعراق في بلاد الرافدين.

كلمة للدول المحيطة بالعراق

إن دوام الحال من المحال كما يقولون, وهكذا انتهى عهد صدام على يد قوات التحالف كما انتهت عهود وسقطت عروش لم تكن تظن أنها ستفنى, وهكذا الملك والحكم دُول بين الناس ولكل زمان دولة ورجال, فهل سيعتبر الناس من سقوط صدام وقد كان نظامه من القوة والرسوخ بحيث حسب الناس أنه سيستمر قروناً طويلة، وإن حزبه باق على رقاب الناس في العراق ما بقيت السماوات والأرض, ولكن قدر الله أقوى من كل طغيان وكل قوة عاتية متجبرة وكل نظام في الشرق والغرب يظن أنه باقٍ لا يفنى.

ان الدول المجاورة للعراق والتي أعانت المحتل على تنفيذ جريمته بحق الشعب العراقي، هي في حدها الأدنى قصيرة النظر، وليس لها نظرة ستراتيجية صائبة. وهذه الدول ستذوق - عاجلاً أم آجلاً - وبال أمرها والضرر الكبير الذي سيلحق بها وبالمنطقة كلها من جراء تواجد المحتل بين أراضيها، وتنامي النفوذ الغربي في منطقة الخليج الغنية بالنفط، والأثر الخطير على السيادة والاستقلال والهوية لدول المنطقة برمتها. إنهم في الحقيقة في نظرتهم للقضاء على صدام ونظامه العدواني حسب رؤيتهم، كمن يستخدم المدفع والصاروخ للقضاء على آفة الأرضة والسوس التي دخلت بيتا من بيوتهم، وربما كان الأجدى لهم وللعرب جميعاً أن يحاولوا إسقاط

النظام بشتى السبل الأخرى، كالانقلاب العسكري أو الحرب المحلية المحدودة بالتحالف مع جيرانهم لدرء خطر العدوان عليهم، أو مقاطعة النظام العراقي كما تفعل الدول التي تدخل حروب أو تتورط في خلافات سياسية حادة مع جيرانها، بدلاً من أن يضعوا أيديهم في أيدي الأجنبي لتدمير العراق نهائياً ونسف هويته والقضاء على بنيته التحتية, بحيث لا يمكن أن تقوم له قائمة, إلا إذا قام العراق بعد قيام دولته الجديدة -كما فعلوا أثناء حرب الخليج الثانية- بالاستعانة بالأجنبي للانتقام منهم, ولعل الخليجيين قد رسموا سياسة وفلسفة الأضعف في الانتقام من خصمه، دون أن يعلموا ما في هذه الفلسفة من تدمير لهوية الأمة ووحدتها ودعوة للتفتت والتشرذم المنهجي، والوقوع في هوة الذل والهوان السحيقة، وسوف يأتي ذلك الحين الذي يتآمر فيه الأنذال وليس الشرفاء من العراقيين على من حولهم, إنهم أولئك الأوباش من محترفي السلب والنهب والإجرام الذين جيّشوهم بالتعاون مع المحتلين لنهب البلد وسلب مقدراته ووثائقه ومتاحفه وجامعاته، لأن هذا السوس المدمّر الذي غفلوا عنه, سينمو ويرتقي إلى مراكز القوة في البلد بمساعدة المحتلين، فماذا سيقولون لو أنهم وقعوا فريسة هؤلاء، وهل سيحميهم الغزاة؟.. إذا كان تدمير الخليج من جديد- كما كان تدمير العراق اليوم- سيصب في مصلحة القوة الغاشمة العالمية، التي لا يحكمها قانون أو اتفاق, ماذا سيقولون لو أن أمريكا تبنت مقولة لا تسر الكويت وبقية دول الخليج، بالعودة

إلى الدفاتر القديمة والوثائق الملكية والعثمانية, هل سينفع القانون الدولي والأمم المتحدة والشرعية الدولية إذا كانوا هم من أيد تهميشها وتعطيلها، وهذا المنطق ينطبق على كل الدول والأقليات والأحزاب التي أيدت العدوان والغزو الأمريكي للعراق سواء بسواء, وإن غداً لناظره لقريب.

إن احتلال العراق وما سيحدث بعده من تداعيات كبيرة ستغير الستراتيجية السياسية في منطقة الشرق الأوسط خاصة والعالم بشكل عام، فمن المتوقع أن تقوم حكومة فيدرالية ديمقراطية في العراق ممثلة للسياسة الأمريكية في المنطقة والعالم, وإن هذا الوضع سيذكرنا بدور العراق أبان الحكم الملكي بإدارة نوري السعيد وموالاته للمحتلين الإنكليز من خلال قيادة العراق لحلف بغداد المعروف الذي كان يضم تركيا وإيران والأردن والعراق، كما يتوقع أن يكون الحكم في العراق شبيهاً بحكم الشاه في إيران وممارسة دور الشرطي الأمريكي للسيطرة على الحوض النفطي في الخليج وبحر قزوين وشرق أوربا والاتحاد السوفييتي فضلا عن توفير الأمن الحديدي لإسرائيل، وسيكون العراق مرشحا لحمل الهراوة الأمريكية، وذلك سيتطلب أموراً عديدة منها:-

توسيع حدوده البحرية والبرية وإضافة موانئ جديدة له للقيام بهذا الدور، كما إنه وبسبب التناقضات والأزمة المستعصية للقضية الكردية وتفرق العرق الكردي بين خمس دول حول كردستان هي

العراق وإيران وتركيا وسوريا وروسيا، سيكون من أبرز الأنظمة التي سيقع على عاتقها تحجيم الدور السياسي الكردي والالتفاف على قضيتهم القومية, لاسيما الطموح المشروع بتكوين دولة كردية في كردستان وإقامة حكم كونفدرالي كردي ضمن دولة العراق الجديد، فمن مصلحة أمريكا ترضية تركيا وإيران بقمع وتحجيم ذلك الطموح الذي كان وراء انفصال كردستان بعد حرب الخليج الثانية بتشجيع وتخطيط أمريكي ضد الحكم المركزي في بغداد في عهد صدام أبان حقبة الحصار. فماذا سيقول الأكراد وبقية دول الخليج ومصر وباقي الدول التي أيدت أو سكتت عن الغزو الأمريكي للعراق بحجة التخلص من صدام وحكمه الفردي الاستبدادي؟.. وفي أجواء تلك التداعيات والأحداث الجسيمة والمأساة التي من المنتظر أن تحل بالعرب والمسلمين في مرحلة ما بعد الحرب, نخشى على الأمة ممثلة بشعوبها العديدة وحكامها أن تردد المثل العربي القديم الذي يقول: (وعلى نفسها جنت براقش). إن الدور المرسوم للعراق بعد الحرب كدولة مقربة وصديقة للولايات المتحدة الأمريكية, وكدولة راعية للمصالح الأمريكية في الشرق الأوسط كما كان الشاه قبل مجيء الخميني عام 1979, يجعل كافة الحسابات السياسية والستراتيجية تنقلب رأساً على عقب, وتجعل كل دولة مجاورة للعراق بل حتى أوربا واليابان فضلاً عن الدول العربية والإسلامية الأخرى تنظر بعين الريبة والتوجس مما ينتظرها من تغيير في

الموازين المختلفة سواء موازين القوى والعلاقات الدولية أو كيفية معالجة الأزمات السياسية القديمة والقادمة وعلاقة ذلك بالمرجعية الدولية في الأمم المتحدة ومجلس الأمن, مما سيغير بشكل جذري طبيعة العلاقات والتكتلات الدولية في المستقبل المنظور, إن الدول التي ساهمت والتي وقفت تتفرج على سقوط نظام صدام الذي لا يمكن أن ننفي عنه صفة الشرعية رغم مساوئه, ستنظر بعين الريبة والشك الذي قد يصل إلى حد الخوف السياسي وعدم الثقة في النظام الوريث والموالي لأمريكا والراعي الأول لمصالحها في المنطقة, كما أن علاقة عراق ما بعد الحرب بإسرائيل ستكون هي الأخرى محل جدل ونزاع بين حكام العرب وشعوبهم. يا ترى كيف ستؤول الأمور في السنين القليلة القادمة؟.. وهل سينقلب السحر على الساحر بالنسبة للدول التي تحالفت مع أمريكا, أَمْ إنها ستحاول أن تبحث لها عن دور آخر عسى أن يقبله التوازن الدولي الجديد, لاسيما في المنطقة العربية وحول إسرائيل بالذات. إن هذه كلها أسئلة وتوجسات ينبغي على الدول المحيطة بالعراق والدول العربية المحيطة بإسرائيل أن تسألها لنفسها وتحاول أن تضع إجابات افتراضية لها لكي تنجح في الامتحان الصعب القادم بعد العدوان على العراق واحتلاله.

الفدائيون والاستشهاديون العرب

بعد أن بدأت الحرب على العراق ونتيجة التعاطف الدولي معه والهيجان العربي والإسلامي لشجب العدوان, بدأت جموع من الاستشهاديين العرب تتوافد على العراق من الحدود السورية, وكان أغلب هؤلاء من الأخوة السوريين والبعض الآخر كانوا من مختلف الجنسيات العربية, كاليماني والفلسطيني والأردني والخليجي والسعودي واللبناني والمصري والجزائري والمغربي وغيرهم من المجاهدين العرب والمسلمين. وكان العدد المعلن لهؤلاء ستة آلاف فدائي عربي, لكن مَن رآهم من شهود العيان يقدرهم بأكثر من ذلك, وقد كان هؤلاء الفدائيون العرب متحمسين جداً للقتال. ولقد قاتلوا جنبا إلى جنب مع الشعب والفدائيين العراقيين خلال الأسابيع الثلاثة، وربما نستطيع أن نؤكد أنه من مجموع ستة آلاف استشهادي تدفقوا أثناء الحرب للدفاع عن العراق وأهله وأرضه من أن تدنس من قبل الغزاة، إن أكثر من ثلثي هذا العدد قد أستشهد على طول الساحة العراقية وعرضها من البصرة وحتى الموصل، كما يمكن تقدير عدد الشهداء في المدن والمواقع المهمة, بأن هناك ألفاً منهم قد أستشهد في معارك الناصرية والبصرة وألفاً في النجف وكربلاء والحلة وألفاً في بغداد في المعارك الأخيرة لاسيما في المنصور والأعظمية والعامرية والمطار والتاجي وغيرها من المعارك البطولية التي

استمرت عدة أيام بعد إعلان سقوط النظام. غير أنه من المؤسف أن بعض المتخاذلين لاسيما المرتبطين بالنظام أخذوا ينزعجون من مقاومة هؤلاء الاستشهاديين سواء العرب أو العراقيين, والذين استمرت مقاومتهم لما بعد السبت 12/ 4 في عدد من مناطق بغداد، فكان البعض يقوم بتسليمهم إلى قوات التحالف بثمن بخس أو يهددونهم لترك جهادهم والرحيل من حيث أتوا، وفي المقابل بقي معظم الشعب مساندا لهذه الحركة البطولية (حركة المقاومة الاستشهادية في بغداد والمحافظات) وكانوا يؤونهم ويقدمون لهم المؤن والغذاء والسلاح، وكان هؤلاء الأبطال قد اتخذوا من المساجد مقرات لهم ولانطلاقهم ضد المحتلين لاسيما في الأعظمية والعامرية والمنصور, وبعد أن تراجعت إمكانية المقاومة وأصبحت بغداد في حكم المحتلة وبدأ الغزاة ينتشرون في كل درب وصوب من بغداد، قام أهالي بغداد الشرفاء بمساعدة الاستشهاديين لترحيلهم إلى الحدود الغربية عبر طريق بغداد الرمادي إلى الرطبة والقائم.

وقد حدثني أحد الثقات الذين كانوا في أحد مراكز تجمعهم في بغداد أن عدداً منهم عندما وزع عليهم السلاح رفضوا استلامه وطالبوا المسؤولين أن يسلموهم أحزمة ناسفة، وقال أنه قد حدثه أحد هؤلاء الاستشهاديين العرب, أنهم بعد أن تجمعوا في بغداد وتم تصويرهم في الإعلام العراقي وعرضهم على الصحفيين ومراسلي شبكات الإعلام الفضائية العربية والأجنبية, وبعد أن انتهت المهمة الإعلامية

تركوا في البناية دون أن يبقى معهم أحد من المسؤولين لتوجيههم وتهيئتهم للقتال. وقد كان أكثرهم شباباً في سن العشرينات ومنهم من كان عمره سبعين عاماً ومنهم أطفال وصبية لا يتجاوز عمرهم 14 سنة, وأن أحد هؤلاء الأطفال كان قد عبر الحدود تهريباً وبدون علم أهله, وعندما علمت به أمه لحقته إلى بغداد وكان يتخفى عنها من مجموعة إلى مجموعة. ويذكر أنه كان من بينهم عددٌ قليلٌ جداً من الجواسيس ذكروا منهم أردنيا واحداً. لقد أبدى الاستشهاديون بطولات نادرة أثناء القتال, فكان عدد منهم يقوم باقتحام باب الدبابة والدخول فيها وتفجير نفسه مع طاقم الدبابة المعادية, وقام أحدهم برمي الدبابة بالقذيفة الأولى والثانية وعندما نفدت ذخيرته هجم عليها بجسمه, ويروي شهود عيان أن مجموعة منهم تعدادهم بحدود المائة في طريق الناصرية- البصرة أعطبوا في يوم واحد 40 دبابة. ويذكر الذين رافقوهم أنهم كانوا مثال الطاعة والالتزام والانضباط وكانوا من الزهد والبساطة لدرجة أن أحدهم يقاتل يومين وغذاؤه كسرة خبز يابسة في جيبه. ويذكر من كان معهم أن من يستشهد منهم تكون رائحته رائحة المسك, ويقول أن هذه الرائحة الزكية لا زالت في أنفي منذ عشرين يوماً. ويروي أن كل من تم دفنه من هؤلاء الشهداء كان يشير بسبابة إصبعه للتوحيد.

لقد كانت الإدارة العراقية لهم فاشلة, حيث استلموا أكثرهم من الحدود وبعضهم جاء بنفسه وجمعوهم في فندق السدير ضمن قوائم

وحسب الروتين، وأخذوا جوازتهم وحجزوها عند جهة أمنية خاصة, وفي النهاية وبعد سقوط النظام جاء الأمريكان واستولوا على هذه القوائم والجوازات أو معظمها وأصبحت أحدى الأدلة والوسائل المهمة في متابعتهم وتعقب تواجدهم. ثم قام العراقيون في بداية الحرب بنقلهم وتوزيعهم بدون منهجية أو خطة واضحة, فمن قائمة إلى قائمة إلى المعسكرات, وفي المعسكرات أفهموهم أن العراق ليس بحاجة لهم وأن وجودهم هو لمجرد رفع المعنويات. لقد تعرض هؤلاء الفدائيون لإطلاق النار في المعسكرات عدة مرات. وعندما رفضوا المعسكرات وتوجهوا إلى جبهات القتال تركوهم بدون دليل أو قائد أو خطة ميدانية لعملهم الفدائي. وعندما كانوا يطلبون منهم ذلك, كان الضباط يقولون لهم: انتم استشهاديون وهذا العدو أمامكم.. ثم يتركونهم وينصرفون عنهم. وقد تواترت الروايات وأقوال شهود العيان أن كثير منهم جاء مشياً على الأقدام من السماوة ومن النجف وكربلاء حتى بغداد لاسيما في الأسبوع الثالث وبعد ارتباك الأمور في المدن الجنوبية بعد وصول قوات التحالف إلى بغداد.

لقد قتل كثير منهم غدراً من الخلف, وإن أكثر الشهداء كانت إصابتهم من الخلف. ويذكرون أنه في معركة المطار رمى أحدهم الدبابة الأمريكية وعندما اشتعلت فيها النار صاح الله أكبر, فأطلق عليه أحد المتخاذلين النار من الخلف فقتله.

وبعد سقوط بغداد تذمر بعض الناس منهم -وإن كانوا قلة- واعتبروهم سبب البلاء, وحاولوا التخلص منهم إما بالوشاية أو بطردهم أو بإسماعهم كلمات جارحة, أما الأكثرية من العراقيين فقد أكرموهم وساعدوهم على الاختباء أو الخروج. ويذكرون في شارع حيفا في بغداد أن امرأتين قامتا بإخفاء وتهريب عدد من الاستشهاديين بعد سقوط بغداد وسيطرة قوات التحالف على المدينة. وفي محافظة الأنبار قدم الناس لهم كل المساعدة وأوصلوهم إلى الحدود قرب مدينة القائم. وقد تم ترحيل ما لا يقل عن ألف وخمسمائة استشهادي برواية شهود العيان من أغلب مناطق بغداد إلى الصحراء الغربية.

ظاهرة الاستسلام ورفع الأعلام البيض

قام البعض برفع أعلام بيض على البيوت والسيارات بعد سقوط بغداد مباشرةً, والجدير بالذكر أن أغلب من وضع الأعلام البيض تعبيراً عن الاستسلام لقوات الاحتلال، كانوا من المتخاذلين والواهنين وأذناب النظام المندحر، أما الشرفاء والأبطال فقد واصلوا رفضهم للاحتلال وشجبهم للغزو حتى النهاية وهم الأغلبية، وقامت مظاهرات عديدة تندد بالاحتلال وبأعمال السلب والنهب التي دعمها الغزاة وبالتخاذل والاستسلام, وإن من أوائل المظاهرات التي حدثت في بغداد هي مظاهرة الأعظمية بعد صلاة الجمعة ليوم 4/18 تشجب الاحتلال والتدمير الذي تعرض له البلد, وتدعو إلى إقامة حكومة إسلامية لا سنية ولا شيعية وإنما تضم الجميع لإعادة النظام والحياة إلى هذا البلد المنكوب, وقد سبق هذه التظاهرة الضخمة مظاهرة أخرى في الأعظمية والكاظمية عصر الخميس 4/17 حيث شارك فيها جمع كريم من علماء الشيعة ومثقفيهم في الكاظمية مع علماء السنة في الأعظمية، والتقى المتظاهرون على جسر الأئمة ثم ساروا مجتمعين حتى ساحة عنتر, كما قامت مظاهرات يومية أمام فندق مريديان منذ الأحد 13/ 4 حيث تتمركز قيادة قوات التحالف ووسائل الإعلام والصحف والقنوات الفضائية العالمية في بغداد, وكنت قد شهدت هذه المظاهرات ليومي الأحد والاثنين 13-4/14 وهي تندد بالعدوان والاحتلال وتطالب بجلاء المحتل من العراق.

أصحاب الفيل

﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم في تضليل. وأرسل عليهم طيراً أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول﴾[2]

من المعلوم أن الحزب الجمهوري الأمريكي الذي ينتمي إليه الرئيس الأمريكي بوش وإدارته الحالية هو الحزب الذي أيد مشروع الحرب على العراق وأغرى الشعب الأمريكي بالثروة النفطية والطبيعية الهائلة في العراق, وروج لفكرة تصدير الديمقراطية الأمريكية إلى خارج أمريكا وتدعيم العولمة وفكرة أمركة العالم, وكان اللوبي الصهيوني هو المحرّض الأكبر والقوة الدافعة والفاعلة لهذه التوجهات الاستعمارية الأمريكية والمستفيد الأكبر من غزو العراق واحتلاله. والمعلوم أيضا إن شعار الحزب الجمهوري هو الفيل، فهم أصحاب الفيل في أمريكا أي أصحاب الفيل في العصر الحاضر, يربطهم بأصحاب الفيل الأحباش في عصر المولد النبوي أن شعارهم واحد هو الفيل، وكلاهما قد اقترف جريمة الغزو والعدوان على أرض العرب ومقدسات المسلمين، فأبرهة الحبشي نظير بوش الأمريكي، وإن غزو مكة من قبل جيش أبرهة المدجج بالسلاح والعدة والعدد الكبير من الجند والمرتزقة، يقابله غزو قوات التحالف وجيوش بوش وبلير المدججة بأحدث الأسلحة والتكنولوجيا المحرمة

---

[2] سورة الفيل.

وغير المحرمة، جاءوا بعدتهم وعددهم عبر البحار والمحيطات, يدفعهم الهاجس الاستعماري واجتياح العراق الصابر, مستخدمين مختلف الحجج والذرائع والتزييف الإعلامي والحرب النفسية لتحقيق هدفهم الخبيث في احتلال العراق ونهب ثرواته وربطه بعجلة النظام الدولي الجديد الذي تتزعمه أمريكا, وإن كل من قام بدور الدليل في تسهيل الغزو الأمريكي يمثل دور أبي رُغال. وإذا كان عبد المطلب جد النبي ﷺ وأمير مكة وزعيم قريش يومها قد أجاب أبرهة حينما طالبه بأن يعيد له إبله، فقال له أبرهة ظننتك جئت تسأل عن مكة وتدافع عنها أو ترجو عدم تدميرها وهدم الكعبة، فإذا بك تسأل عن الإبل، يا لك من شيخ خرف.. فأجابه عبد المطلب: إنما أنا رب الإبل, وإن للبيت رباً يحميه.. فضحك أبرهة مستخفا بقناعة عبد المطلب ونظرته الغريبة لحماية البيت العتيق وكعبة اللـه في الأرض، وما هي إلا ساعات حتى بدأ الذعر والخوف يدب في جيش أبرهة، بعد أن رأوا أن الطير الأبابيل بدأت ترميهم بالحجر وتفلقهم إلى نصفين فهلك أبرهة وجيشه، وكذلك كان اللـه سبحانه مع العراق في تصديه للعدوان, فيما حدث لجيش بوش في الأسبوع الأول بعد اجتياح العاصفة الرملية لجيشه المدلل في الصحراء لمدة ثلاثة أيام، والتي دمّرت وخرّبت أجهزتهم ورادارا تهم ومعداتهم وأحاطتهم بدوامات هوائية خانقة ورياح رملية, جعلت أهل العراق يتذكرون يوم الأحزاب حينما حاصر المشركون المدينة المنورة, وكيف أن الريح العاتية التي أرسلها اللـه دكت حصونهم وقدورهم فاضطرتهم

إلى الرحيل عن المدينة وفك حصارها، وقد حاول العراقيون استغلال هذه العواصف الربانية ومناقلة الجيش والحرس الجمهوري والفدائيين بين بغداد وجبهات القتال في الجنوب, وقد كانت هذه المناقلة العسكرية فرصة ذهبية لتكبيد العدو خسائر جسيمة وتقوية الدفاعات العراقية في البصرة والناصرية والنجف والحلة والكوت وحول بغداد، وتم بعدها تكبيد العدو خسائر غير متوقعة, جعلت الأمريكان يفكرون جديا بمراجعة خططهم وتغييرها جذريا كما حدث فعلا، حينما التجأوا إلى الاستخدام المكثف للأسلحة المحرمة في معارك بغداد الأخيرة، وصنعوا غطاء إعلاميا لإخفاء جريمتهم وضعفهم, وذلك بتحجيم دور الإعلام العالمي المحايد، ليخفوا جرائمهم ولكي يقولوا للعالم أن العراق استسلم دون قتال لكي يتم تشويه صورة الشعب العراقي وبسالته، ولكن هيهات، فإن الله سبحانه الذي خذل جيش أبرهة ونصر أهل مكة على أصحاب الفيل قبل خمسة عشر قرنا، هو أكبر وأقوى من قوات التحالف وسينصر هذا الشعب العظيم على الغزاة الطامعين ولو بعد حين، وقد جعل الله سبحانه من العاصفة الرملية والانتصارات الكبيرة في معارك أم قصر والفاو والبصرة والناصرية والسماوة والنجف وبغداد والأنبار آيات بينات على وعده بالنصر لأهل الحق والمؤمنين بوعد الله ونصره حين يأذن الله سبحانه كما اخبرنا في سورة الفيل وفي آيات كثيرة في قرآنه العزيز.

الحرب العاصفة

إن هذه الحرب الغاشمة الظالمة التي اجترأت فيها أمريكا على الله والإنسانية وعقرت ناقة الشرعية الدولية هي حرب عاصفة بحق بكل شئ من حولها, لقد عصفت هذه الحرب البربرية المدمرة التي افتقرت إلى الشرعية والأخلاقية والتي سيتحمل وزرها كل من شارك في الإعداد لها وتمويلها وتقديم التسهيلات لها، لقد عصفت هذه الحرب بأركان النظام العالمي والمنظمات الدولية والعربية والإسلامية التي كانت تبدو وكأنها مؤسسات هزيلة فاقدة الحياة والفعل السياسي أمام الطغيان والغطرسة الأمريكية لفتح باب العراق بهدف السيطرة على العالم والهيمنة على مقدرات الشعوب والدول في شتى الأصقاع والأنحاء. لقد انتهى دور منظمة الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي ولم يعد لها دور أو قوة فاعلة في الأحداث المقبلة وفي حل المشاكل الدولية في المستقبل لوقوعها في زاوية الشلل السياسي لتفعيل قراراتها وإلزام الدول بها, بعد أن تركتها الولايات المتحدة وراء ظهرها في عملية ضرب العراق واحتلاله. لقد عصفت هذه الحرب بأمريكا وديمقراطيتها ومثلها واحترامها لحقوق الإنسان وسيادة الدول والتزامها بالقانون الدولي ومواثيق المنظمات الدولية وفي مقدمتها الأمم المتحدة ومجلس الأمن، واحترامها لأجهزة الإعلام العالمية الحرة. وكشفت الروح

الاستعمارية الإمبريالية التي تجذَّرت واستقرَّت في قلوب رؤسائها وقادتها ومؤسساتها.

كما عصفت هذه الحرب بمصداقية الحضارة الأمريكية وديمقراطيتها وقـدرتها عـلى إقناع العالم المتحضر بالحذو تجاه النموذج الأمريكي الذي فقد الشرعية والمصداقية في دعوته الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان داخل أمريكا بعد أحداث 11 أيلـول وخارج أمريكا بعد ضرب العراق. وأصـبحت الحضـارة الأمريكيـة والنظـام الـدولي الجديـد والعولمـة في أسـوأ وأضـعف حالاتهـا وقـدرتها عـلى إقنـاع العـالم بأهميـة مفاهيمها بعد موت القوة الذاتية الفاعلة لها أمام المنطق الهمجـي الـذي فرضـته أمريكا على العالم في تعاملها مع الدول والأزمات ومعالجتها الكيفية والمزاجية لهذه الأزمات، فيا لها من خسارة عظمى للحضـارة الأمريكيـة وانحـدار مظلـم وسـحيق للمنهج الأمريكي وتداعياته بعد هذه الحرب الـلا شرعيـة العاصـفة بكـل المفـاهيم الخيرة في الحضارة البشرية، إنها مرحلة انحطاط الإنسان ونظرته البربرية للسياسـة والاقتصاد والدين والاجتماع. إنها عودة للقرصنة وشريعة الغاب التي كانت سائدة في أوربا في القرون الوسطى الهمجية, تلـك هـي جريمـة أمريكـا الكـبرى في مطلـع القرن الواحد والعشرين دفعتها نحوها الـروح الاسـتعمارية والغطرسـة والطغيـان الذي نفخته فيها العقلية الصهيونية الشريرة التي تطمح إلى السـيطرة عـلى العـالم مـن خـلال الأخطبـوط والنمـوذج الأمـريكي الغاشـم. ثـم عصـفت هـذه الحـرب

بصدام حسين ونظامه الدكتاتوري المتحجر الذي أراد أن يكون فرعـون الـعصر وأن ينصب من نفسه في العراق بديلا عن الـلـه سواء أكـان يعلـم أم لا يعلـم, وعصفت بحزبه الذي كان أفسد منه، حكم البلاد أكثر من ثلاثين عاما بالحديد والنار وبالاستبداد واستعباد الشعب حسب نظرية الحـزب الواحـد المتعسـفة، وقد قتل صـدام وحزبـه روح الإبـداع والعمـل والتحـدي والبنـاء بتلـك الـروح الفردية والنظرة المصلحية والنفعية، حـين كـان الـولاء لصـدام أساسـها دون أي اعتبار للأمانة والكفاءة والخبرة، مما أدى إلى تـفشي الفسـاد الإداري والرشـاوى والسرقات وقتل العقول المخلصة والعاملة والمبدعة وهجرتها إلى ما يشاء الـلـه بحثا عن الأمن والرزق والحرية، فكانت النتيجة المرّة المتوقعـة هزيمـة النظـام وحزبه خلال الأيام الأولى -كما توقع الأمريكان- لولا إن أصالة الشعب العراقي ورصيده الأخلاقي الكامن وغيرته على وطنه ودينه ضد الاحتلال الأجنبـي، هـي التي أخّرت السـقوط بـل حولتـه إلى نصر, ولقـد عـزّ عـلى الأمريكـان تحقيـق أحلامهـم إلا باسـتخدام السـلاح النـووي وأسـلحة التـدمير الشـامل المحرمـة، فشهدت الأسابيع الأربعة، أسبوعين لصالح الشعب العراقي، ذاق الأمريكان مرّ الهزيمة فيهما، وأسبوعاً ثالثاً اضطر الغزاة إلى استخدام الخطة البديلة للصـدمة والترويـع بـاللجوء إلى الأسـاليب القـذرة والأسـلحة المحرمـة, والأسـبوع الأخـير الـذي كرّسـه الغـزاة للسـلب والنهـب والتـدمير والإحـراق عـلى يـد عصـابات

السلب والنهب من داخل وخارج البلد وبمساعدة وتشجيع قوات الاحتلال, للانتقام من الشعب وتدمير بنيته التحتية ووثائقه وكتبه ومتاحفه وجامعاته ومدارسه تماما كما فعل هولاكو وجيشه المغولي قبل سبعة قرون في بغداد العباسية، فتلوثت مياه دجلة باللون الأزرق والأحمر، لامتزاجها بأحبار الكتب ودماء الشهداء، وما أشبه اليوم بالأمس، فبوش هو شبيه هولاكو، وهمجية الأمريكان تشبه إلى حد كبير همجية المغول، وشعب العراق كان محروما فقيرا في الحالين، وغنى صدام لا يشبهه إلا غنى المستعصم وخزائنه التي كانت ممتلئة، والمتآمرون والخونة والبطانة الفاسدة حوليهما هم أنفسهم أو هم اليوم أحفاد أولئك المتخاذلين الذين تحالفوا مع هولاكو لإسقاط بغداد وحضارة الرشيد.

لقد عصفت هذه الحرب أيضاً بكل الحكام العرب المستبدين والعملاء, وسيلمس هؤلاء أثر ذلك العصف الذي سيهز أركان حكمهم في الفترة القادمة, لعدم امتلاكهم الحس والقدرة على الارتقاء لفهم الشارع العربي وهمومه واحترام الفرد العربي والتقرب إليه ومعرفة دواخله وآلامه، إن تداعيات هذه الحرب ستعصف بأشكال الحكم وأنماطه الهزيلة وتبعيته للأجنبي وعدم قدرته على التحرر من قيوده وأوثاقه وسياقاته الشكلية التي لا فعل لها ولا أثر على الساحة العربية، والذي يحصل في فلسطين الآن وما حصل في العراق أكبر مؤشر على فشل الأنظمة العربية والحكام العرب في مواجهة التحدي

الذي يعيشه العرب اليوم في الهجمة الاستعمارية الصهيونية المسعورة والتي اتخذت من غزو العراق منطلقاً عسكرياً لها.

وقد عصفت هذه الحرب بالأحزاب والمنظمات الإسلامية والقومية والعلمانية في تصور ما يمكن أن يحل بأي دولة عربية أو إسلامية فيما إذا توجه إليها المارد الأمريكي الصهيوني بحجة الإرهاب أو توفير الحرية والديمقراطية أو غيرها من المسميات التي يتذرع بها الأعداء لمحاربة الأمة وتدميرها.

إنها الحرب العاصفة التي لا تبقي ولا تذر لأحد أية قوة أو استقلال أو سيادة على ماله وعرضه وأرضه وأوطانه، إنها حرب الشيطان ضد الشعوب والأوطان وضد الخيرين من أولياء الرحمن وضد كل إنسان حر شريف يؤمن بالعدل والخير والحرية ويريد للناس أن يعيشوا كما يريد الخالق سبحانه أمما وشعوبا وقبائل متنوعة مختلفة المشارب والأفكار لكي يتعارفوا ويتعاونوا لبناء حضارة الإنسان على الأرض، ولكن أتباع الشيطان لا يسمحون.. قال تعالى: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير**﴾[3].

[3] سورة الحجرات/ 13.

ترى ما هي أهداف الحملة الأمريكية الحقيقية على العراق وما هي الدوافع الرئيسية لغزوه؟ هل هي لاحتلاله والسيطرة على ثرواته وفي مقدمتها النفط والزئبق الأحمر واليورانيوم والكبريت والفوسفات وغيرها من المعادن الثمينة؟ ومن المعلوم أن العراق يحتوي على ثاني أكبر مخزون نفطي في العالم،كما إن النفط العراقي يعد من أجود أنواع النفط في العالم أيضاً.

أم إن الهدف الأساسي لاحتلال العراق هو توفير الضمان الستراتيجي للأمن القومي الإسرائيلي وتوفير الجو المناسب لإحداث تغييرات أساسية في سياسة التطبيع والسلام العربي الإسرائيلي بالآلية التي يريد الأمريكان والصهاينة فرضها على العرب في المرحلة القادمة، تمهيداً لتوفير الاستقرار السياسي لإسرائيل وتفعيل السوق الشرق أوسطية بقيادة إسرائيلية وإشراف أمريكي.

أم إن الهدف الستراتيجي الخفي والأكثر أهمية هو تطويق القطب الأوربي الموحد وربما روسيا بالذات التي خسرت الحرب الباردة بعد تفتيت الإتحاد السوفييتي وحلف وارشو في مطلع التسعينات، وإن حرب العراق ما هي إلا مرحلة جديدة ومتطورة من مراحل الحرب الباردة التي لم تنتهِ بعد، من وجهة النظر الأمريكية، ومن ثم القضاء على الترسانة الصاروخية النووية والستراتيجية التي تهدد أمريكا, أمريكا التي لم تعد تكتفي بموقع الصدارة بين الدول العظمى بل أخذت تستشرف دور الانفراد بالقرار الدولي لقيادة العالم

والسيطرة الكاملة على مقدراته من خلال مفاهيم العولمة والنظام الدولي الجديد، بعد أن تمكنت من فتح بوابة الأمركة وتفتيت الأمم المتحدة وإلغاء دورها وفرض اللا شرعية التي ستكون حتماً من التداعيات المهمة والسريعة لحرب العراق واحتلاله، فالعراق وفق هذا المفهوم ليس هدفاً بحد ذاته، شأن أفغانستان وكوسوفو، وإنما وسيلة سياسية وعسكرية لإحاطة روسيا وأوربا بحزام أمني خطير يتشكل من أفغانستان والعراق وتركيا وكوسوفو وإسرائيل. فبمجرد أقامة حلف أمريكي لهذه الدول حول روسيا وأوربا فضلا عن دور النفط والتحكم الكلي بالاقتصاد العالمي ستكون أوربا -وروسيا بالذات- قد وقعت في الفخ، وسوف لن تقوم لأوربا الموحدة قائمة بعد تنفيذ هذه الستراتيجية... وقد تكون هناك أهداف أخرى عديدة، ولكننا نؤمن بأن مكر الشر والشيطان كان ضعيفاً، وسيكون الله سبحانه وسننه وقوانينه التي تعمل في بناء وهدم الدول والحضارات وفق قانون الأسباب الإلهي، بالمرصاد لهذا الشر المستطير. وقد أدرك العالم بعد الحرب أن أمريكا ستحاول ممارسة منطق الثور الأبيض وسياسة القضم في القضاء على خصومها ومعارضيها في العالم الواحد تلو الآخر.

إن الإعلام الأمريكي الذي اشتهر خلال هذه الحرب بالكذب والخداع والتزييف وقلب الحقائق سيحاول بكل ما أوتي من قوة وجبروت أن يشوه كل الحقائق التي يمكن أن تكشف نقاط ضعف السياسة

الأمريكية المتغطرسة والمستبدة، ويشكل الصورة الإعلامية المزيفة المتكاملة والتي يريد تسويقها للعالم، وإن أهم الحقائق التي سيحاول طمسها ومسخها في هذه الحرب هي حقيقة الصمود البطولي لشعب العراق وتحديه لعقلية الغزو والاستعمار والاحتلال والإنفراد والهيمنة على العالم، ذلك الصمود الذي شارك فيه كل العراقيين بمختلف مذاهبهم ومشاربهم، والذي صمد أكثر من عشرين يوماً أمام أعتى قوتين عدوانيتين جاءتا لغزو العراق واحتلاله متذرعة بحجج مكررة وواضحة الكذب والبطلان، وهم قد بيتوا النية على الاحتلال والاستعمار الطويل الأمد، ومن الحقائق التي أظهرت كذب هذه الحملة الاستعمارية وكذب قادتها ومخططيها، أنهم لم يعثروا على أسلحة تدمير شامل في العراق كما صرح الأمريكان بذلك قبل أيام، ولم يقوموا بتحرير الشعب بل استبدلوا الفوضى والاضطراب والانفلات الأمني بالنظام الفردي الذي دعموه أكثر من عشرين سنة ثم أغروه بغزو الكويت وغدروا به وجعلوه بين مطرقة الحرب وسندان الحصار، وهم قد سمحوا وشجعوا بعد إسقاط النظام على أعمال السلب والنهب والحرق والتدمير المنظم لكل تراث العراق وحضارته وممتلكاته ووثائقه، ثم هم يصرحون الآن- ولم تنتهِ الحرب بعد رسمياً- دون خوف أو خجل عن نيتهم في بناء أربع قواعد عسكرية أمريكية في العراق، واحدة في الناصرية أو الشعيبة جنوب العراق وواحدة في بغداد قرب المطار وثالثة في الحبانية

غرب البلاد ورابعة في كردستان في شمال العراق كما قام الرئيس الأمـريكي بـوش بتعيين خمسة مسؤولين أمريكـان لإدارة الحكـم المبـاشر للعـراق وهـم الجـترال المتقاعد جي كارتر/ مدير مكتب الإعمار والمساعدات الإنسـانية, وزلمـاي خليـل زادة/ مستشاراً ومسؤولاً عـن الانتخابـات في العـراق, وبربـارا/ مسـؤولة بغـداد ووسط العراق, وبيرنـر/ الحـاكم المـدني وأخـيراً الجـترال تـومي فـرانس/ الحـاكم العسكري للعراق. وهـم يراوغـون في وعـودهم وعهـودهم مـع فئـات الشـعب والكتل والأحزاب التي قاموا بجلب بعضها معهـم وأوعـزوا إلى آخـرين بتشـكيل هذه المنظمات والأحزاب، أما الفئـات والأحـزاب التـي تمثـل الشـعب فهـي الآن أضعف من أن تتمكن من الدفاع عن نفسها فضلاً عن تشـكيل حكومـة وحكـم البلد. إن الإعلام الأمريكي الموجه ضـد هـذا الشـعب الصـابر لم يـترك صـغيرة ولا كبيرة إلا ويحاول أن يعيد تشكيلها من جديد وفـق النظـرة المتحيـزة والمخادعـة لكي يعيد تشكيل العقول والنفوس بالطريقة التي تخدم مخططـه ومصـالحه في العراق والمنطقة ولكي يبني ستراتيجية الأمن الإسرائـيلي الأبـدي الجديـدة. ومـن الصغائر الإعلامية التي لم يهملهـا هـذا الإعـلام الموجـه أنـه أخـذ يشـكك في كـل قصص البطولة والصمود والتحدي لهذا الشعب المـؤمن العريـق، فحتـى الفـلاح العراقي الذي أسقط طـائرة الأبـاشي بسـلاحه الخفيـف اسـتكثروها عليـه وعـلى الشعب، فقالوا إنها كذبة أملاهـا أعـوان صـدام عـلى هـذا الفـلاح المسـكين ثـم

وعدوه بمكافأة ولم يصرفوها له. وقالوا أيضاً إن الذي ظهر في أحياء بغداد يوم الأحد 6/4 إنما هو شبيه صدام وليس صدام نفسه، وإن قتلاهم كانوا فقط 126 جندياً وليس آلاف الجنود ... وغيرها من الأكاذيب والخداع الإعلامي الذي درجوا عليه وعلى تسويقه إلى شعوبهم وإلى الرأي العام العالمي.

لقد أعلن بوش يوم الخميس 5/1 ومن على حاملة الطائرات الأمريكية(أبراهام لنكولن) في ولاية كاليفورنيا عن انتهاء العمليات الحربية الرئيسية لقوات التحالف في العراق، بعد تحقيق الأهداف المحددة لها, ولكنه عزف عن اتخاذ قرار بوقف الحرب في العراق كما كان متوقعا وذلك لأسباب سياسية ولكي لا تتحمل أمريكا تبعات قانونية وسياسية دولية حسب اتفاقيات جنيف حول الحروب وشروط إنهائها لعام 1949 وعام 1977 م ,وكذلك لتدعيم موقفه في الانتخابات الأمريكية القادمة. وقد استمرت هذه الحرب اللاشراعية 43 يوماً, وقد فشل قادتها ومخططوها في تحقيق هدفهم في الحرب الخاطفة والصدمة والترويع لاحتلال العراق وإنهاء الحرب خلال أسبوع, فاضطروا إلى استخدام أساليب غير مشروعة لغدر العراق وطعنه من الخلف واستباحه سيادته وأراضيه مما أدى إلى سقوط أكثر من مائة ألف شهيد من المدنيين والعسكريين, كان نصفهم قد أستشهد بأسلحة الغدر المحرمة ذات التدمير الشامل, كما جرح في هذه الحرب أكثر من خمسين ألف عراقي, مع عشرين ألف أسير.

كان منهم عشرة ألاف أسير مـن المـدنيين مـن سـكان المـدن والعشـائر العراقيـة الذين قاوموا الاحتلال وتصدوا للغزو والعدوان بكل بسالة. أمـا قـوات الاحـتلال التي حاولت أن تخدع الـرأي العـام العـالمي والأمـريكي بشـكل خـاص وجعلـت خسائرها لا تتعدى 150 قتيلاً و300 جـريح, فـإن الحقيقـة التـي أكـدها شـهود العيان والمحللون أن قتلاهم قد جاوزوا عشرين ألفاً من المرتزقة وقوات المارينـز والجيش الأمريكي, وأكثر من ثلاثين ألف جريح امـتلأت بهـم مستشـفيات ألمانيـا وإنكلترا وأسبانيا وأستراليا وأمريكا وبعض الدول الأخـرى الحليفـة لهـم, ومئـات الطائرات السمتية والـدبابات والنـاقلات والعـدد والآليـات التـي جـاؤوا بهـا إلى الخليج لتدمير هذا البلد الآمن, وقد القوا على العراق أكـثر مـن ثلثـي احتيـاطي الصواريخ الستراتيجي الأمـريكي وآلاف الأطنـان مـن القـذائف والمـواد المتفجـرة والأسلحة التدميرية الجديدة التي جاؤوا بها ليجربوها على شـعب العـراق, ومـا خفي كان أعظم. ورغم الاستبداد الإعلامي ومنع الأعلام المحايد وتحجيم حركته, إلا أن الشرفاء في العالم من الصحفيين والإعلاميين والكتاب قد كشفوا الكثـير مـن الحقـائق, والمسـتقبل القريـب والبعيـد كفيـل بكشـف هـذا الزيـف الأمـريكي الصـهيوني ومحاولـة سرقـة تحـدي العـراقيين البطـولي وصـمودهم وتضـحياتهم السخية التي جادوا بها من أجل الدفاع عن وطنهم. إن الـرئيس الأمـريكي بـوش الذي تصور أن هذه الحرب ستكون نزهة وحرباً خاطفة سيجد أنها ليست سوى

مستنقع كبير تورط فيه هو وأعوانه, وأنه سوف لا يجني الثمار التي خطط لها سواء على أرض العراق أو في الساحة السياسية الدولية, وسيكون تجاوزه على الشرعية الدولية أمر مشين في تاريخ الأمة الأمريكية المتحضرة, وسيلعنه الله والتاريخ والشعب الأمريكي والعالم بعد حين من الدهر, حينما يكشف العالم أبعاد هذا التآمر والظلم الذي لحق بالعراق والعالم. أن المبدأ البراكماتي الذي يؤمن به بوش وحزبه سينقلب عليه وعلى شعبه, حين تدور الدوائر وتضعف أمريكا وتسقط هيبتها وتتمزق إلى دويلات وولايات متحاربة متنافرة بدافع من التداعي السياسي والاقتصادي الذي ستولده سياسة اللاشرعية والقوة البراكماتية, وحينها سيعلم بوش والصهاينة والمتصهينين من أعوانه أن القوة تكمن في الحق والمبدأ الصحيح وليس العكس, كما يؤكد المنهج الصهيوني في أدبياته في أن الحق يكمن في القوة والقوة تكمن في الذهب بنوعيه الأصفر والأسود (النفط) وهو الذي دفعهم وجاء بهم إلى هذا المستنقع والمنزلق الذي أسقط مفهوم الشرعية الدولية وجعل العالم في مطلع القرن الحادي والعشرين ما هو إلا شريعة غاب يتقاتل عليه الأقوياء والطواغيت من عباد المال والشهوات والشيطان, وسنرى غداً مدى صدق تلك التوقعات والتداعيات السياسية ومدى انطباق وقوعها بعد هذه الحرب الظالمة.

قال تعالى:

﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾[4].

وفي ختام هذا البحث والجهد الميداني بين شهود العيان والمتابعين وفي أحياء بغداد وشوارعها ومؤسساتها التي شهدت هذه الحرب العاصفة, والتي ستشهد يوم القيامة على أفعال المعتدين وتستغيث من جرائم المحتلين وعدوانهم على الأنفس والأموال والممتلكات, يشاركهم فيها الجواسيس والمتخاذلون والعملاء فضلاً عن السرّاق والمخربين من عصابات السلب والنهب الذين طوعت لهم أنفسهم اغتيال البلد ونهبه وتدمير حضارته.. نسأله تعالى أن يجعل هذا الجهد خالصاً لوجهه الكريم, خالياً من أي شائبة أو عرض من أعراض الدنيا, وأن يطرح فيه الخير والبركة لبث روح التحدي والوعي والثقة بقدرة هذا الشعب على الثبات والدفاع عن بلده وحقه في وجه الطامعين الأشرار, وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه, إنه نعم المولى ونعم النصير..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تم الانتهاء من الكتاب في

12 ربيع الأول 1424هـ الموافق 13/ 5/ 2003م.

[4] سورة الرعد/ 17.

الفهرست

الموضوع	الصفحة

المؤلف في سطور

ولد سنة 1954م من أسرة حسنية كانت تقطن محلة باب الشيخ في بغداد..

يعود لقب العائلة (المدرس) إلى جده السيد عبد الفتاح المدرس الذي كان يدرس الفقه الحنفي في الحضرة القادرية في منتصف القرن التاسع عشر.

أكمل دراسته الإعدادية في مدينة بعقوبة سنة 1972, ودراسته الجامعية في كلية الهندسة/قسم الكهرباء في جامعة بغداد سنة 1976, وعمل مهندساً ثم مديراً لدائرة الصيانة والخدمات في إحدى منشآت وزارة الصناعة والمعادن حتى سنة 1992م, ثم أحيل على التقاعد في تلك السنة..

تفرغ للبحوث والدراسات التاريخية والقرآنية لمدة 15 سنة, كتب عشرات المقالات التراثية والإسلامية في مجال الوحدة والتقريب بين المذاهب الإسلامية في الصحف والمجلات العراقية منها مجلة المفكر الإسلامي ومجلة الكوثر وجريدة الرأي وجريدة الفرات, وطبع له أكثر من أربعين مؤلفاً في بغداد وعمان والدوحة, أهمها:

1- الظاهرة القرآنية والعقل/ ط. بغداد 1986م.

2- النبوءة والاعجاز في القرآن والسنة/ ط. بغداد 1988م.

3- النسب والمصاهرة بين أهل البيت والصحابة/ ط. بغداد والدوحة وعمان والقاهرة 1998 – 2005م.

4- الأمة الوسط/ ط. بغداد-دار الكتب العلمية، ط.عمان-دار عمار 1999.

5- المؤامرة الكبرى في صدر الإسلام / ط. بغداد-دار الأنبار 1998م.

6- الدر المنثور من تراث أهل البيت والصحابة/ ط. بغداد وعمان 1999م.

7- مؤتمر النجف.. رؤية نقدية قرآنية معاصرة / ط. بغداد، ط. عمان 2001.

8- عمر والحسين وجهان لمنهج إسلامي أصيل/ ط. بغداد وعمان 2001م.

9- الإعجاز العلمي في القرآن والسنة/ ط. بغداد – مكتبة الرقيم 2001م.

العضوية في النقابات والجمعيات:

1. عضو نقابة المهندسين العراقية رقم 12535 سنة 1976.
2. عضو اتحاد المؤرخين العرب منذ سنة 1998م.
3. عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق منذ سنة 1999م.
4. عضو جمعية الناشرين العراقيين منذ سنة 2001م.
5. عضو جمعية الآداب الإسلامية/ بغداد.
6. عضو جمعية التربية الإسلامية/ بغداد.
7. عضو جماعة الوحدة والتقريب بين المذاهب الإسلامية/ العراق.
8. عضو جماعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة/ معهد الشرق-بغداد.
9. عضو جماعة دعاة السلام لإنقاذ العراق- بغداد.

ظهر الغلاف

- الغزو الأمريكي والحرب النفسية الإعلامية ومحاولات شل الإعلام المحايد.
- فشل نظرية الحرب الخاطفة وخطة الصدمة والترويع.
- الإعلام الأمريكي يحاول النيل من الصمود البطولي العراقي.
- استخدام سلاح نووي تكتيكي في المطار وأسلحة دمار شامل وقنابل صوتية ومنفلقة وثقيلة على الأحياء السكنية في خطة الصدمة والترويع البديلة واحتلال بغداد.
- صدام يصرّح ليلة سقوطه في آخر كلمة له: أن الشعب قاتل وصبر ولكن حزبه لم يقاتل.
- السلب والنهب (والفرهود) من تدبير الغزاة وأذنابهم.
- كلمة للتاريخ ونصيحة للدول المحيطة بالعراق.
- مصير أصحاب الفيل ومغول بغداد في الماضي هو نفس مصير المحتلين اليوم.

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد 1700 لسنة 2011